-2020
2021

محاضرات في مادة حلقة بحث

موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر تاريخ
إفريقيا جنوب الصحراء

تقديم الأستاذ الدكتور نور الدين شعباني

جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة ـ
كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية قسم
العلوم الإنسانية – شعبة التاريخ ـ

المحور الأول
السلالات البشرية في إفريقيا

أولا: مشكل التصنيف:

إنه لمن الصعوبة بمكان التحدث عن العرق البشري لان نقاوة العرق تتطلب شرطين أساسيين **أولاهما** الانعزال الجنسي أي عدم الاختلاط بالمورثات العرقية الأخرى و هذا أمر نسبي جدا لان الشعوب في هجراتها و حروبها وتعاملاتها وتزاوجها تختلط جيناتها الوراثية مما يتلف الصفات الأصيلة للجنس البشري.

أما **الشرط الثاني** فهو الاصطفاء الطبيعي، أي اختيار المحيط الطبيعي المتشابه باعتباره يؤثر بشكل كبير على الصفات العرقية للشعوب، حيث أن الصفات المورفولوجية والفيزيولوجية تتأثر وتتغير بتغير المحيط الطبيعي، فنجد أن سكان المناطق الصحراوية الجافة تكون فتحة انفهم أضيق من سكان المناطق الاستوائية، و حتى الطول يتأثر سلبيا بالرطوبة فنجد مثلا سكان الغابات الاستوائية البيكمي اقصر طولا من سكان الطوارق القاطنين في المنطق الجافة.

لهذا لا يمكننا تصنيف المجموعات البشرية من حيث العرق و إنما من حيث السلالة أي شجرة النسب. وهو ما جعل الأنثروبولوجيين اليوم معظمهم يتحدثون عن مجموعتين بشريتين في إفريقيا، **المجموعة الأولى** هي الواقعة شمال السواحل الجنوبية للصحراء و هي المجموعة العربية البربرية المتاثرة بمؤثرات البحر الأبيض المتوسط مثل الفينيقيين، الرومان، اليونان، الأتراك، الوندال، الفرنسيين و غيرهم.

أما **المجموعة الثانية** فهي مجموعة الزنوج القاطنة إفريقيا جنوب الصحراء، و التي رغم معرضة بعض الاديولوجيات القومية التي تحاول تمييز جنس على جنس إفريقي لأغراض سياسية او دينية لكنها تبقى مجموعة واحدة رغم ان اختلاف المحيط الطبيعي و الهجرات والحروب و الاستعمار قد ساهم في تغيير الكثير من خصائصها الوراثية.

و بخصوص هذه المجموعات لم يعتمدوا على شجرة الأنساب لان الدماء اختلطت مع بعضها بسبب انتساب الأبناء لأمهاتهم عند الزنوج، لهذا فقد اعتمد الدارسون على معايير في تصنيفها تتعلق بحجم الجمجمة و شكلها و كذا الفكين، طول القامة شكل الأنف و الشعر، لون البشرة، لان الاعتماد على شجرة النسب في إفريقيا صعب جدا بسبب اختلاط الدماء نتيجة انتساب الطفل إلى آمه دون والده، و هذا ما يجعل عملية التحكم في الجد الأكبر صعب المنال إلا ما قد ذكرته لنا الروايات الشفوية في حولياتها و ملاحمها والتي عادة ما تكون رواياتها ذات طابع إشهاري الهدف منه تمجيد الأسر الحاكمة و نسبها لأمجاد وسلالات لا تنتمي إليها.

أمام هذه المعطيات فانه يمكننا أن نطلق على كل سلالة بشرية اسم عائلة إثنية وكل عائلة تنقسم إلى مجموعات بشرية، ونطلق اسم شعب على عدة مجموعات بشرية تشترك في الأصل و التاريخ.

ثانيا: أصل السلالات الإفريقية:

ارتبطت إفريقيا منذ العصور الغابرة بقارة آسيا عبر باب المندب، و ربما كان التواصل اكثر يسرا قديما مع ضيق البحر الأحمر الذي ما فتئ يتسع مع القرون، و مما يؤكد وجود هجرات أسيوية نحو إفريقيا وجود العديد من الدلائل الثقافية الأسيوية في إثيوبيا و التي جاءت من شبه الجزيرة العربية. وبالتالي هناك دراسات عديدة ترجح انتقال السلالات البشرية لشرق إفريقيا من أسيا عبر باب المندب، بينما لا توجد دلائل تبين حدوث هجرية معاكسة من إفريقيا إلى أسيا.

المحور الثاني
بلاد السودان من خلال المصادر العربية

إن ذكر بلاد السودان الغربي قد استعمل للتمييز بينها وبين السودان الشرقي الذي يشغل المنطقة الموجودة في جنوب مصر وبلاد النوبة. كما يذكر هذا المصطلح في التاريخ الإسلامي وخاصة في العصور الوسطي للدلالة على دول جنوب الصحراء الكبرى، للتمييز بينها وبين شمال إفريقيا التي تذكر بدويلات المغرب الإسلامي.

إن هذا التمييز يحمل في طياته دلالات حضارية أكثر منها جغرافية، تجعل المنطقتين الموجودتين في غرب العالم الإسلامي، وهما المغرب الإسلامي والسودان الغربي منطقتين مختلفتين حضاريا و جغرافيا، يفصل بينهما فضاء صحراوي واسع هو الصحراء الكبرى.
فنجد أن القزويني يحدد بلاد السودان الغربي جغرافيا بتلك المنطقة التي ينتهي شمالها إلى أرض البربر، و جنوبها إلى البراري، و شرقها إلى الحبشة، وغربها إلى المحيط.

كما يذهب ابن خلدون إلى تحديدها بتلك المنطقة التي تحد المغرب الإسلامي من جهة القبلة والجنوب، و يقول : «إن الرمال الملتهبة تمثل حاجزا بين السودان و بلاد البربر».وهو الشيء الذي يقودنا إلى أن hابن خلدون كان يعترف بوجود فرق بين المغرب الإسلامي و بلاد الغربي واللذين تفصلهما الصحراء الكبرى. و يذهب المؤرخون الأوربيون إلى نفس ما أشار إليه غيرهم، حيث يقول المؤرخ الإنجليزي جان زجلرك : « إن الرمال المترامية التي تفصل شمال إفريقيا عن إفريقيا السوداء قد فعلت طوال آلاف السنين فعلا يكاد لا يمكن تخطيه». وهو بذلك من يجعل الصحراء الكبرى حدا فاصلا بين منطقتين مختلفتين، هما المغرب الإسلامي والسودان الغربي.

و لكن الشيء الذي يجدر ذكره هو أن بلاد السودان وإن شكلت إقليما متميزا جغرافيا، فيبقى ذكره مرتبطا بذكر بلاد المغرب الإسلامي، لأنه لم يعرف ذلك الدور التاريخي والحضاري المشهود قبل دخول الإسلام إلى المنطقة، رغم احتواء أراضيه على ثروات الدنيا المكتنزة من الذهب والنحاس والملح وغيرها.

فبفضل العرب المسلمين دخل الشريط الساحلي من السودان إلى التاريخ بعدما كان مجهولا من قبل القدماء. ذلك أنه في السنة 46 للهجرة، الموافق لسنة 666 للميلاد، أي قبل تأسيس مدينة القيروان بأربع سنوات فتح عقبة بن نافع الفهري منطقة فزان وغدامس و قسطيلية و

توزر. و بعد مسيرة خمسة عشر يوما وصل إلى واحات كوار حيث أخبره سكانها بأنهم لا يعرفون حتى ذلك الوقت عمرانا، و لا حياة بشرية إلى الجنوب من هذا الإقليم.

و خلال القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد لجأ قوم من العرب والبربر إلى الصحراء الإفريقية بعدما طردوا من قبل الأمويين وبدؤوا يتوافدون دفعات على منطقة حوض تشاد أين كان يوجد طريقان صحراويان كبيران. طريق شرقي وهو درب الأربعين الذي يربط أسيوط بمنطقة الدرفور و يتجه بعد ذلك إلى الغرب باتجاه حوض تبتري والقرن الشمالي الشرقي لحوض التشاد.

أما الطريق الثاني، فهو الأقصر من الأول، و يربط البحر المتوسط بتشاد لأنه يمتد مباشرة من الشمال إلى الجنوب.

ولقد التقى هؤولاء البدو البيض مع السكان السود من (شعب الساوساو) الذين اختلطوا فيما بينهم و كونوا شعب (كانم بو)، أو (كانم بورنو) ، والتي تعني سكان الجنوب بلغة التوبو.
وتقول الرواية الشعبية أنه حوالي سنة 184 هـ/الموافق لـ 600م، قامت عائلة سفوه أو (شوا) التي تنسب نفسها إلى سيف بن ذي يزن اليمني، والذين نزحوا إلى هذه البلاد بعدما هاجروا من منطقة بورك.

وإذا كان القرن الثاني للهجرة يعد محطة اكتشاف السودان الغربي عن طريق عملية الامتزاج البشري المشار إليها. فإن الوقائع التاريخية المنقولة تؤكد بأن وجود بلاد السودان ككيان سياسي وحضاري منظم يرجع إلى فترات أكثر إيغالا في القدم مما ذكرنا، ذلك أنه منذ القرن الثالث للميلاد وجدت في السودان الغربي مملكة منظمة سياسيا وهي مملكة غانا[1]، ولكنها لم تسجل تلك الشهرة و ذلك الصيت إلا مع حلول القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، أي بعد سبعة قرون من نشأتها كإمارة.

لذلك نقول بأن القرن الرابع هـ/العاشر و يمثل بداية العصر الذهبي لمنطقة السودان الغربي، بحيث خرجت المنطقة من فتراتها التاريخية المظلمة وأطلت على العالم و كسبت صيتا وشهرة عالميتين و نفضت عنها غبار السنين الغابرة.

و قد ساعدها في تحقيق تلك النقلة عدة عوامل. أهمها انتشار الإسلام في المنطقة، وبالتالي عرفت المنطقة امتدادا حضاريا أوسع من حدود الصحراء والبراري. بالإضافة إلى اكتشاف أهمية الثروة التي تكتنزها من الذهب والنحاس والعبيد، ثم جاء فتح الطرق التجارية التي ربطت السودان الغربي بأشهر الحواضر في العالم الإسلامي.
و امتدت هذه الفترة لمدة تزيد على الخمسة قرون، إلى غاية سقوط آخر كبرى الممالك في السودان الغربي وهي مملكة سنغاي الإسلامية.

[1] EDICRO et CLOIRSSY : Histoire des peuples noirs, Abidjan, 1963, P 20.

المحور الثالث
ممالك االسودان القديمة

أولا: إمبراطورية غانة :

و تعد أقدم ما تكلم عنه المؤرخون من الممالك السودانية، إذ يرجع تاريخ نشأتها إلى القرن الثالث للميلاد، كما أنها عرفت أطول مدة من الوجود والسيطرة في منطقة السودان الغربي وذلك إلى غاية أواخر القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد.

1. الموقع والتأسيس:

إن غانة المقصودة هنا بالبحث ليست هي جمهورية غانة المعروفة حاليا، ذلك أن إشارات الجغرافيين العرب المتعلقة بالمنطقة تضم أرجاء لا تمت بصلة إلى ما يعرف الأن بجمهورية غانة، فمعظم المؤرخين يذهبون إلى أنها سيطرت على كل المنطقة الممتدة من بلاد السنغال وحوض النيجر،/ وتمتد إلى جنوب موريطانيا الحالية وجزء من المالي.

أما الإدريسي، فإنه يضع حدودا إقليمية لإمبراطورية غانة بإشارته إلى اتصالها بمقزازة[1] من الغرب، و بلاد ونقارة من الشرق والتي تبعد عن العاصمة الغانية بثمانية أيام و يحددها من الشمال بأرض الصحراء المتمركزة بين أرض السودان وغيرها من أرض البربر من اللملمية. كما يحددها كورنوفان(*Cornevin*) بتلك المنطقة المحصورة في جنوب ببلاد أوكار، و من الشمال الغربي تحدها جمهورية مالي الحالية.

وكانت إمبراطورية غانة في أعز أيام مجدها وذلك أواخر القرن الرابع وبدايات القرن الخامس للهجرة (11/10م). تمتد إلى غاية مناجم الذهب الموجودة في فاليمي وبامبوك وحتى تمبكتو، ومن جهة الغرب كانت تشمل معظم المناطق الشرقية والوسطى لجمهورية موريطانيا الحالية و في الشمال تتوغل إلى عمق الصحراء.

[1] و هي نفسها مغراوة.

لذلك أصبحت هذه الإمبراطورية بفضل إتساع رقعتها تصنف من طرف المصادر العربية وغيرها من أهم وأكبر ممالك السودان الغربي. فالإدريسي يصنفها بأكبر بلاد السودان وأوسعها قطرا ومتجرا وأكثرها خلقا.

لكن يجب أن نشير أن تاريخ نشأة هذه المملكة يعود إلى القرن الثالث للميلاد عندما تأسست إمارة صغيرة تسمى "غانة" بالقرب من نهر النيجر الأعلى ثم أخذت تتطور وتتوسع إلى أن أصبحت إمبراطورية قوية.

وقد شكل موضوع تأسيس غانة ونشأتها محور جدل وتضارب بين المؤرخين، وذلك ربما يرجع إلى إيغال هذه النشأة في القدم إلى فترة كانت فيها منطقة السودان ما تزال مجهولة لدى الكثير من المؤرخين.

فالمصادر العربية كانت تجهل أصل كلمة غانة باعتبارها كلمة أجنبية ولا وجود لها في القاموس العربي حسبما يذهب إليه ياقوت الحموي. لكنهم في الوقت ذاته يجمعون على أنها أول إمبراطورية عرفتها منطقة السودان الغربي، وأول إمارة منظمة، قبل أن تصل إلى مرحلة الإمبراطورية. لذلك نقول بأن تاريخ تأسيس مدينة غانة يعود حتما إلى عصور سبقت ظهور غانة الإمبراطورية.

فعندما تحدث البكري عن غانة خلال القرن الخامس للهجرة/11م، كانت هذه الأخيرة موجودة منذ عدة قرون، كما أن هناك من المراجع التي تشير إلى أن تأسيس إمارة غانة يعود إلى القرن الثالث للميلاد، و منهم من يذهب إلى أن نشأة مدينة غانة يعود إلى القرن الرابع للميلاد وأن تطورها بدأ مع نهاية القرن الثامن للميلاد/الأول للهجرة. كما أن المؤرخ السوداني محمود كعت يذكر بأن هناك عشرين ملكا من ملوك غانة قد مضوا قبل ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم.

و كان تأسيس مملكة غانة على يد قبائل السراكولي الذين يشكلون مجموعة من القبائل مثل الماركا، الياس سونكة (السوننكي)، ديولا و دافينغ الذين يعدون المؤسسين الحقيقيين لمملكة غانة. وكان ذلك بإيعاز من أمراء يقال أنهم من أصول بيضاء سادوا في واداقودو قبل سبعمائة وخمسين سنة تقريبا من تأسيسها وازدهارها.

و مهما يكن فإن هذه المعلومات تبدو منطقية إلى حد بعيد إذا ما علمنا بأن كلمة ساراكولي تعني في لغة السودان الرجل الأبيض، هذا بالإضافة إلى كلام المسعودي الذي يؤكد هذا المعنى بقوله : «و لما تفرق ولد نوح عليه السلام في الأرض، سار ولد كوش بن كنعان نحو الغرب حتي قطعوا نيل مصر، ثم افترقوا فسارت منهم طائفة ميمنة بين المشرق والمغرب وهم النوبة و البجة والزنج، وسار فريق منهم نحو المغرب، وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوة والكانم و الماركا و كوكو وغانة وغير ذلك من أنواع السودان».

ومن هنا نستطيع القول بأن أصل مؤسسي غانة القديمة يعدون حاميين من خلال سلالاتهم البربرية والذين بعد تزاوجهم بالسود بدؤوا يكونون شيئا فشيئا طبقة من المولدين الذين تشكلت منهم الإمارات الزنجية.

فهناك عدة إشارات تصب في أن أصل سكان غانة لا يخرج عن دائرة الشعوب البربرية، سواء بالنسبة لقبائل السوننكي التي تنتمي إليها قبائل صنهاجة البربرية، أوسكان دلتا نهر النيجر أين توجد إمارات بربرية مثل ولاتة، زناتة وأودغست من فرع صنهاجة.

فابن حوقل يذكر عن الكندي أن البيضان إذا تناسلوا في بلد السودان سبعة أبطن عادوا في سحنتهم و سوادهم، و إذا توالد السودان في بلد البيضان سبعة أبطن عادوا إلى صورتهم وخلقهم من البياض والنقاء.[1]كما أن السعدي يشير إلى أن هناك اثنتين وعشرين ملكا حكموا غانة قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا بيضان في الأصل.
و يذهب آخرون إلى احتمال انتساب مؤسسي غانة إلى القبائل االمحلية، وهي قبائل بيضاء سكنت المنطقة مع بداية القرن الثالث للميلاد.إلا أن الشيء الملاحظ هو أن ازدهار إمبراطورية غانة لم يتم إلا في عهد الملوك الزنجيين.

إن اسم غانة الإمبراطورية استمد من اسم غانة المدينة، و به تسمى ملوكها الذين كان يطلق عليهم كذلك لقب (غاناتا)، فهو لقب يطلق على الملك ثم أصبح اسما للإمبراطورية.

ويعتقد الكثير من المؤرخين أن مدينة كومبي صالح هي التي كان يقصد بها مدينةغانة عاصمة الإمبراطورية، ذلك أنه في عام 1914م قام أحد الضباط الفرنسيين يدعي بونيل ميزيير (*BONIL Mezière*) بعملية التنقيب في إحدى المناطق القريبة من الساحل وهي منطقة رملية في أعالي النيجر، فوجد شواهد جعلته يعتقد أن تلك المنطقة بالذات كانت تقع فيها عاصمة غانة، لذلك بدأت أعمال تنقيب في منطقة كومبي صالح الواقعة على بعد 205 ميل شمالي مدينة بماكو (عاصمة مالي الحالية)، كشفت بأن تاريخ هذه المدينة يرجع إلى حوالي 800 أو 900 سنة مضت و هو ما يجعل الإعتقاد بأن المدينة غانة التجارية التي أشار إليها البكري تكون قريبة من هذه المنطقة.

2- التطور السياسي لإمبراطورية غانة :

رغم أن التأسيس الفعلي لمملكة غانة يعود إلى القرن الثالث للميلاد أو بعده بقليل، إلا أن هذه الفترة من تاريخها السياسي تبقى غامضة، و يستمر هذا الغموض إلى غاية نهاية القرن الثامن و بداية القرن التاسع الميلاديين الذي يصادف نهاية القرن الثاني و بداية الثالث الهجريين.

و يرجح أن يكون قد حكم غانة أربعة وأربعون أميرا من أصل أبيض منذ القرن الرابع للميلاد وهم تابعين لأجناس سود من شعب السوننكي، الذين يعدون أجداد أمراء السراكولي الذين أتوا من بعدهم. ولكن تبقى المعلومات بشأنهم ضعيفة.

و بدأت غانة منذ العهود الأولى لميلاد المسيح تبرز كقوة اقتصادية و سياسية بفضل احتوائها على الذهب، لكن ظهورها كإمبراطورية لم يتم إلا مع أواخر القرن الثامن و بداية القرن التاسع للميلاد، حيث كانت تربطها علاقات تجارية مع دول شمال إفريقيا خلال هذه الفترة.

[1] إبن حوقل (النصيبي) : صورة الأرض. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 101.

فمنذ عام 745هـ/128مـ، أي بعد سنوات قليلة من فتح المسلمين لبلاد المغرب، بعث هؤلاء حملة استكشافية إلى السودان أين جلبوا كمية من الذهب من مملكة غانة، وقاموا بتهيئة آبار على طول الطريق القديم للصحراء الغربية شمالا في تافلالت، وجنوبا في أودغست وغانة مما يبين تقدير المسلمين لأهمية المملكة من الناحية الإقتصادية.
هذا و نشير إلى أن الفزاري زار غانة حوالي سنة 184هـ/800م، ورسم خريطة للعالم على غرار خريطة بطليموس، فوضع عليها غانة باسم بلاد الذهب.

وهكذا وجدت مملكة غانة كإطار سياسي في السودان الغربي بزعامة شعب السراكولي سالف الذكر غاية نهاية القرن الثاني للهجرة/8 م أين حدثت نقلة نوعية في التاريخ السياسي للمملكة. حيث انفرد بالحكم ملوك شعب السونانكي السود يدعي(كاياماغان سيسي) والتي تعني بلغة السوننكي (ملك الذهب)، و طرد البربر البيض في منطقة الوكر بعدما حكم غانة. قبله عدة ملوك منهم، مثل (بنتغوي داكوراي) الذي حكم حوالي عام 174 هـ/790م، ثم بعده (تكلان) الذي حكم في مطلع القرن الثالث للهجرة/9 م. و جاء بعده بولاتان (أو تلوتان)، الذي حكم حتي عام 222 هـ/837 م، والذي كان يخضع تحت سلطته أكثر من عشرين ملكا سودانيا. و كان ملوك السوننكي عظماء الشأن واستفادوا من الفوضي التي سادت بربر صنهاجة خلال هذه الفترة، ليخضعوا أودغست على يد كاياماغان.

و قد بدأ السوننكي يتوسعون، فبعد إحكام سيطرتهم على أودغست المجاورة لهم واصل خلفاء كاياماغان أعمالهم التوسعية. حتى إذا جاء القرن الرابع للهجرة/10مأصبحت غانة مملكة واسعة تمتد من منطقة جني إلى السنغال وبلاد التكرور جنوبا، أما في الشمال فقد أصبح جزء كبير من قبائل منطقة لمتونة تابعيين لإمبراطورية غانة.

وكانت منطقة ناولي في جنوب تمثل الحد الأقصى لتوسعات غانة جنوبا و لعل أشهر هؤلاء الملوك الذين خلفوا (كاياماغان) هو الملك (بسي) الذي بلغت غانة في عهده شانا عظيما، والذي خلفه ابن أخته تانكامين أو(طونكا) والذي دخلت غانة في عهده مرحلة أخرى من التطور والقوة، فلقد كان قويا شديد الشوكة مهيب السلطان محمود السيرة محبا للعدل مكرما للمسلمين.

ولقد وصل إلى الحكم سنة 455هـ/1063م و أصبح يتميز بصفة القداسة و الأبهة التي تليق بأباطرة العصور الوسطى، حيث كان يعيش في قصر واسع من الحجر واثق البنيان مزخرف بالنقوش وشمسيات الزجاج، لكنه أصيب بالعمي في أواخر أيامه و كان يكتم ذلك عن رعيته.

وعموما فأن الفترة الممتدة بين منتصف القرن الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين أزهى عصور الإمبراطورية علي الإطلاق، وخلالها بلغت الإمبراطورية أوج اتساعها وعرفت أقوي السلاطين، بحيث أصبحت رقعتها تمتد إلي غاية ممالك الجنوب مثل التكرور و الصوصو، و في الشرق إلى دول الدلتا الوسطى النيجرية أين توجد إمارات بربرية مثل ولاتة و أوداغست و شمالا إلى غاية حدود الصحراء في منطقة الحضر بموريتانية.

ولعل سبب بلوغ إمبراطورية غانة لهذه المكانة المزدهرة والامتداد الشاسع قبل غيرها من ممالك إفريقيا الغربية، يعود بالدرجة الأولي إلى قوة جيشها الذي تمكن من استعمال السلاح الحديدي قبل غيره من الجيش السودانية، و حرص ملوكها علي تنظيم الجيش وتطويره فكان لها جيش دائم يبلغ تعداد أفراده أربعة ألاف محارب في وقت الشدة. وكان ملوكها قادرين علي تجنيد مائتي ألف محارب دون صعوبة، و في إمكانهم تسليح أربعين ألف مسلحين بالعصي والرماح.

وكان الملك يتسم بصفة المحارب، حيث أن كل من يجلس علي عرش للإمبرطورية الغانية يلقب "بغانة" والتي تعني في لغتهم " قائد الحرب " أيضا مما يؤكد هذا المعنى. بالإضافة إلى القوة العسكرية استطاعت غانة بناء قوتها بواسطة التجارة و استغلال مناجم الذهب، بحيث فتحوا بلادهم في وجه التجارة بين شمال الصحراء وجنوبها منذ وقت مبكر.

3- سقوط غانة :

إذا كان آخر القرن الخامس الهجري يشكل أزهي أيام الإمبراطورية، فإنه يمثل في نفس الوقت نهاية التطور السياسي للمملكة، ذالك أن الامبراطورية عرفت ابتداء من منتصف القرن الخامس للهجرة/11م تحولا جديدا في تاريخها ليس السياسي فحسب بل في تاريخها العسكري والحضاري و ذلك بدخول الإسلام إلي المنطقة.

ففي عام 446 هـ/1054م تعرضت إمبراطورية غانة ألي هجوم المرابطين، الذين استولوا علي مدينة أودغست عام 447 هـ/1055م، وهي ثاني أهم مدينة في غانة بعد العاصمة كومبي.

وكان سقوط أودغست في أيدي المرابطين إذانا ببداية النهاية المبراطورية غانة، إذ لم تكن قوة الجيش الغاني وصلابته كافيتين لصد هجمات عبد الله ابن ياسين، و من بعده يحي بن عمر و أبي بكر بن عمر الذي استطاع أن يستولي على العاصمة كومبي سنة 463 هـ/1067م.

إن استيلاء المرابطين علي العاصمة شكل منعطفا مهما في تاريخ الإمبراطورية. فعلى الرغم من أن سيطرة المرابطي علي المنطقة لم يتجاوز العشرين سنة بوفاة قائد المرابطين أبي بكر بن عمر سنة 480 هـ/1087م و عودة السيادة مرة أخرى إلى ملوك غانة القدماء، إلا أن الفتح المرابطي لغانة كانت له عدة نتائج على الإمبراطورية، أهمها انتشار الإسلام، حيث شمل القصر أولا بحيث دخل الملك تنكامين الإسلام وأصبح يخطب لنفسه تحت طاعة أمير المؤمنين المرابطي، وأعطى لمدينة غانة اسم (كومبي صالح) تبركا و بنسبه الشريف حيث كان يدعي انتسابه إلى ذرية صالح بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن علي. أما النتيجة الثانية لهجومات المرابطين، فهي بداية تفكك الإمبراطورية الغانية التي كانت تضم عدة قبائل وممالك وإمارات سودانية كانت قد أخضعتها في يوم من الأيام بقوة السيف. فكان سقوط غانة تحت ضربات المرابطين فرصة لهذه الممالك و الإمارات للانتقام و الانفصال عن الإمبراطورية. و كانت مملكة التكرور أهم إقليم انفصل عن غانة وتخلص من هيمنتها. و هي مملكة واقعة على ضفاف نهر النيجر دخل ملكها (وار جابي) الإسلام و ساهم في الجهاد الذي أعلنه المرابطون على السودان الوثنيين، و شق عصا الطاعة على امبرطورية غانة ثم

واصل ابنه (لابي) سياسة التحالف مع المرابطين و قاتل معهم قبائل جدالة عام 448هـ/1056م و أصبحت لملك التكرور كامل السيادة على نهر السنغال، و سيطرة على مناجم الذهب في (غالام) وتحكم في مناجم الملح بأوليل.

وهكذا كانت مملكة التكرور أول من يستقل عن السلطة الغانية، و يساهم في تقليص مساحتها. كما أن حركة التكرور الانفصالية أخذت طابعا دينيا شجع مسلمي السودان على مقاومة النفوذ الغاني تحت غطاء الجهاد، كما شجع ممالك وإطارات سودانية أخرى وثنية وفسح لها المجال لتنحو منحاها، و من هذه الإمارات نجد إمارة الصوصو الوثنية التي أسسها شعب السوننكي كذلك و ثارت ضد ملك غانة. و سيطر زعيمها (سمنغورو كانتي) على مدينة غانة وطرد منها المسلمين نحو ولاته.[1]كما تشكلت إمارات أخرى مستقلة عن غانة مثل إمارة (دوكوري) و إمارة (وقادو) و (زافون) و (ميما).

وكانت إمارة الصوصو أكثر الممالك عداوة وحقدا وكراهية لملوك غانة، حيث استغلت فرصة ضعفهم و مقاومتهم للمرابطين فبدأت تتوسع في الأرضي الغانية منذ بداية القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد إلى أن استولت على أكبر جزء من الأرضي الغانية التي كان يسيطر عليها ملك غانة تنكامين خلال أيام مجدها الزاهر.

وفي سنة 601هـ/1200-1235م قام ملك الصوصو الوثني الذي يدعى (سمنغورو كانتي) والذي حكم بين 598 و 633 هـ/1200 و 1235 م بالاستيلاء على مدينة غانة، و طرد السوننكي المسلمين منها، وفي عام 638هـ/1240م قام بالهجوم على العاصمة كومبي وخربها.

وهكذا فإن سقوط كومبي كان إيذانا بنهاية غانة التي أصبحت مجرد اسم لامع لأول إمبرطورية سوداء نمت في ظلها حضارة مشرقة. فحتى سكان غانة وهم شعب السراكولي أو (السوننكي) الذين قامت علي سواعدهم و سيوفهم إمبراطورية غانة أصبحوا مجرد أقلية يبحثون عن موقع لهم في السودان الغربي. فبعد إسلامهم وطردهم من غانة من طرف وثني الصوصو لجؤوا إلى مدينة ولاته التي تبعد بـ 200 كم جنوب شرق غانة وأسسوا بدورهم سنة 622هـ/1224م مدينة ولاته التي أصبحت منذ القرن السابع للهجرة تستقطب العلماء البربر من جدالة و أصبحت بذلك تعوض أوداغست و غانة كمحطة للقوافل التجارية.

2. مملكة الكانم بورنو و مملكة السنغاي :

لقد كانت غانة أقوى الممالك السودانية في أفريقيا الغربية و أولها خلال الفترة الممتدة بين القرنين 4 و6 للهجرة/10-12 للميلاد. و سيطرت على الأحداث في المنطقة خلال هذه الفترة قبل سقوطها مع هجمات المرابطين.

لكن الشيء الذي تشير إليه المصادر هو أنها لم تكن المملكة الوحيدة في المنطقة بل أن الوضع السياسي في السودان الغربي عرف وجود ممالك أخرى تمتعت باستقلالها وبدورها في تاريخ السودان في نفس الفترة التي وجدت فيها إمبراطورية غانة، واستمر

وجودها حتى بعد سقوطها. و لعل أهم هذه الممالك وأشهرها في السودان الأوسط و الغربي هي مملكتا الكانم بورنو و السنغاي.

أ- مملكة الكانم بورنو:

اختلفت المصادر العربية حول الحدود الحقيقية لمملكة الكانم، فالبكري يضع حدودها إلى ما وراء صحراء زويلة على مسافة أربعين يوما دون أن يوضح إلى أين تنتهي حدودها جنوبا. بينما يشير ابن سعيد إلى امتدادها إلى غاية النيل المصري شرقا و يشاطره الرأي العمري عندما يذكر بأن مملكة الكانم تبدأ من حدود مصر إلى غاية مدينة تدعى (زيلا). أما الدراسات المعاصرة فتذهب إلى أنها كانت تسيطر على المنطقة التي تبدأ من تبستي الحاليةو منطقة كانم الواقعة شمال جمهورية التشاد و تشمل قسما من جمهورية نيجيريا الحالية.

لهذا نقول أن امبرطورية الكانم يمكن أن تكون قد امتدت إلى أبعد من ذلك، حيث أن ابن سعيد الذي عاصر المملكة في أزهى أيامها واتساعها ذكر بأن بلاد فزان وودان كانتا خلال القرن السابع للهجرة/13م تابعتين لمملكة الكانم، إذ يمكن أن يكون امتدادها قد وصل إلى مشارف البحر المتوسط شمالا.

إن هذا الاختلاف في تحديد أطراف المملكة يرجع إلى اختلاف المؤرخين من حيث معاصرتهم لتطورات المملكة، ومن حالات الضعف و القوة أو الفوضى و الاستقرار.

أما تاريخ تأسيس هذه المملكة، فيكتنفه شيء من الغموض لقلة ما جاء به المعاصرون لهذه الفترة، لكن الروايات الشفوية الشعبية المحلية تضع سنة 184هـ/800م تاريخ نشأة المملكة، و نفس هذه الروايات تقول بأن هناك عائلة بني ساف (أو سفوة) من منطقة (بوركو) جنوب التبستي تحالفت مع قبائل التوبو السودانيين الوثنيين وأسسوا أول مملكة الكانم. وهناك روايات أخرى مفادها أن مؤسسي هذه المملكة إنما هم شعب (البولالا) قبل مجيء الإسلام إلى المنطقة.

و مهما يكن فإن مملكة الكانم ما هي في الأصل إلا تجمع بشري مشكل من مزيج من الشعوب البدوية علي اختلاف أنسابهم ومشربهم مادام أن المنطقة المذكورة تقع في قلب صحراء ممتدة بين صحراء ليبيا وتشاد والنوبة أو التي تشكل مسلكا لحركة البدو الرحل. ويكون احتكاك هؤلاء الرحل فيما بينهم هو الذي شكل الشعب الذي أسس مملكة الكانم فيما بعد، من خلال التنظيم الأسري الجيد الذي كانت تعرفة تلك القبائل.

أما مملكة بورنو فإنها إمارة صغيرة وجدت غرب الكانم علي الضفاف الغربية لبحيرة تشاد. و ملوكها ينسبون أنفسهم إلى سيف بن ذي يزن اليمني، وتختلط بسكانها بعض القبائل العربية. و قد تأسست هذه الإمارة حوالي القرن الثالث للهجرة/9م، قبل أن تتحد مع مملكة الكانم و تكون مملكة قوية في المنطقة و بذلك يبدأ تاريخ الكانم بورنو.

عرفت مملكة الكانم بورنو منذ تأسيسها تطورا سريعا وعرفت عدت ملوك متهورين أمثال (دوكو)، (فونا)، (أرسو)، (كاتور)، (أيوما) وغيرهم. لكن التحول الكبيرة الذي عرفته هذه المملكة كان سنة 478هـ/1085 وهو تاريخ اعتناق عاشر ملوك الكانم الإسلام وهو الملك (هوماي).

إن الإسلام كان قد وصل إلى بلاد الكانم منذ وقت مبكر، إلا أنه لم يشمل كل سكان المملكة، و بقيت العاصمة القديمة وهي (مانان) إلى وقت متأخر تعج بالكفار، لكن بدخول الملك هوماي إلى الإسلام جعل بلاد الكانم بورنو تصبح قلعة من قلاع الإسلام في السودان الغربي والأوسط من خلال عمليات التوسع التي كان يقوم بها من أجل نشر الإسلام في صفوف الشعوب الوثنية خلال الفترة الممتدة من 1085م (تاريخ اعتناقه الإسلام) إلى غاية وفاته عام 1097م/491هـ.

لقد اخضع (هوماي) عدة شعوب وثنية لسلطته، منها مدينة (كوري) التي تسمى بحيرة التشاد باسمها و مدينة (بدي) و (جاجة)، و كان ملك الكانم ينطلق من هذه المدن لغزو بلاد الكفار على جوانب بحيرة كوري، فيقطع مراكبهم و يقتل و يسبي من فيها.

كما بسطت مملكة الكانم سيطرتها على مدن إسلامية كانت قد سلمت على ايدي فقهاء وملوك الكانم، مثل سلطنة (تجوة)، ومملكة (كوار) ومملكة (فزان) ومدينة (رديني). وسيطرت على الشعوب البربرية الصحراوية المتمركزة شرقي جبل (مقورس) الفاصل بين الكانم و إمارة كوكو، و الذين أسلموا على يد سلطان الكانم،يتخذهم عبيدا له و يغزو بهم و ينتفع بجمالهم. وهكذا برز نجم الكانم في السودان الأوسط والغربي بفضل انجازات الملك هوماي الذي في عهده بدأت المعلومات التاريخية حول الكانم بورنو تظهر.

و لقد اتخذ هوماي (نجيمي) عاصمة جديدة للملكة عوض العاصمة القديمة (مانان)، وجلب إليها العلماء والفقهاء الذين كانوا يترجمون القرآن و يعلمون الفقه و نشر الأفكار السياسية الخاصة بالمغرب الإسلامي.

بعد وفاة الملك هوماي عرفت مملكة الكانم بورنو ملوكا عظماء منهم (دوناما الأول) الذي خلف هوماي و حكم خمسين سنة ثم (بير بن دوناما) الذي حكم سبعا وعشرين سنة، و بعده (عبد الله بن بير) الذي حكم سبع عشرة سنة، و كلهم ملوك أقوياء استطاعوا أن يوطدوا أقدام المملكة، و يحافظوا على استقرارها وازدهارها، حيث انتهجوا نظاما سياسيا يرتكز على الإقطاعية المحضة. فالملك ما هو إلا رئيس مجلس العائلة و رئيس مجلس إدارة مزرعة العائلة التي تملك مؤسسة استغلال فلاحي وبشري، كما يقوم الملك الذي يلقب بـ (ماي) أو (ماعي) بفرض ضرائب على القبائل الخاضعة، حيث تشكل مصدر قوته و سطوته.

لكن يبقي عهد الملك (عبد الجليل سيما) الذي حكم بين سنتي 562-617هـ، 1195/ 1220م. قمة ازدهار المملكة بلغت في عهده أوج قوتها واتساعها، أما ابنه (دوناما الثاني) الذي عاصر ابن سعيد المغربي و الذي يصفه بالسلطان المشهور بالجهاد وأفعال الخير، وينسبه إلى ذرية سيف بن ذي يزن فقد كانت الثياب تحمل له من الحضرة التونسية وأسلم على يديه كثير من البرابرة.

إن سياسة التوسع التي انتهجها ملوك الكانم كانت لها نتائج سلبية، حيث تسببت في إنهاك اقتصادها و أكثرت من أعدائها الكفار المحيطين بها، وأثارت نقمة البربر المسلمين الذين

استعبدهم ملوكها. كما انتقل الصراع على العرش إلى أحفاد الملك دوناما و بدأت المؤامرات والدسائس والفتن بين أفراد الأسرة المالكة ومناوئهم من القبائل الأخرى تعصف بالمملكة.

فكان دونانما الثاني آخر الملوك الأقوياء، حيث شهد آخر القرن الثالث عشر للميلاد/7هـ بداية الانحدار والتراجع لمملكة الكانم، وبدأت شعوب (البولالا) و(الصوصو) و(التوبو) تثور ضدها. واستولى شعب البولالا على جزء من بلاد الكانم وضموها إلى مملكتهم التي تسمى ببحيرة فيتري. واستمر الوضع المتعفن إلى غاية أواخر القرن التاسع للهجرة/15م، عندما وصل إلى الحكم (علي دوناما) 877هـ/1472م. وأعاد النظام للمملكة و فرض الاستقرار وأسس نواة لمملكة بورنو التي عوضت مملكة الكانم. وعرفة مملكة بورنو معارك كبيرة من أجل الحفاظ على استقرارها والقضاء على الفتن و الاضطرابات التي قادها السلطان إدريس.

ثانيا: مملكة سنغاي :

تعرف هذه المملكة أيظا باسم (سنغوي) وقد أطلق اسم سنغاي لأول مرة على الجزء الممتد حول نهر النيجر وعلى الشعب الذي يسكن هذه المنطقة وعلي المملكة التي أقامها هذا الشعب. ثم وسعت هذه المملكة رقعة أرضها بعد ذلك إلى أن بلغت بحيرة (ديو) شمالا وجنوبا إلى الحد الشمالي لمستعمرة داهومي الفرنسية (البنين الحالية).

تأسست مملكة سنغاي خلال القرن السابع للميلاد/الأول للهجرة، حيث تروي الروايات المحلية للمنطقة أن مؤسسها هو زعيم بربري من الليبيين يدعى (زا الأيمن) الذي فرمن الهجمات العربية واستقر في منطقة كوكيا (150 كيلومتر جنوب مدينة جاو) وفرض سيطرته على الشعوب البدائية من الصيادين ، وعندما استقر هؤلاء البرابرة في كوكيا كونوا ما يسمى بقبيلة سنغاي التي اتخذت المملكة فيما بعد إسمها منها. و بعد أن تنظم شعب (أو سكان) قبيلة سنغاي تحت سلطة واحدة كونوا دولتهم التي اتخذت كوكيا مقرا لها.

وقد عرفت سنغاي عدة ملوك بدءا بـ (زا الأيمن) ثم خلفه بعد ذلك أربعة عشر ملكا ماتوا كلهم في الجاهلية و لم يدخلوا الاستلام. لكن منذ القرن الخامس للهجرة /11م عرفت سنغاي تحولا عظيما في تاريخها بفضل اعتناق أول ملوكها الإسلام وهو (دياكوسي) أو (زاكوسي) سنة 400 هـ، والذي اتخذ لقب (دم) و تعني في لغتهم "أسلم طوعا" ، و كان أول عمل قام به الملك المسلم دياكوسي هو نقل العاصمة من كوكيا إلى مدينة جاو التي ذكرتها معظم المصادر العربية بكوكو والتي تبعد عن كوكيا بمائة وخمسين كيلومترا شمالا، و تقع على ضفة نهر يخرج من الشمال لنهر النيجر. و لما استقر دياكوسي في جاو بدأ في نشر الإسلام في ربوع المملكة، فكانت أسرة (ديا) هي أول أسرة ملكية في جاو تعتنق الإسلام، و بعد ذلك انتشر الإسلام انتشارا واسعا في المملكة وذلك بفضل جهود ملوك سنغاي ونفوذ المرابطين وفقهائهم و دور التجار المسلمين في المملكة.

بقيت مملكة سنغاي تشق طريقها نحو التطور، وعرفت ملوكا أقوياء بعد دياكوسي، ولعل أشهرهم ملك يدعى (فندا) الذي ذكره البكري خلال القرن الخامس للهجرة، والذي كان يتوقف الناس في عهده عن التصرف في المدينة عندما يبدأ هذا الملك في الأكل إلى غاية أن يفرغ من طعامه. و هناك ملك أخر من عائلة (ديا) وعاصر الإدريسي خلال منتصف القرن السادس للهجرة/12م حيث وصفه هذا الأخير بأنه « ملك قائم بذاته خاطب لنفسه، و له حشم

كثير و دخلة كبيرة و قواد وأجناد و زي كامل وحلية حسنة، و لهم بأس و قهر لمن جاورهم من الأمم المحيطة بأرضهم».

و لعل قوة مملكة سنغاي اكتسبها من ثرائهم الناتج عن وقوعها في منطقة عبور هامة للقوافل التجارية، مما جعلها تنافس في ثرائها أعظم إمبراطوريات السودان الغربي مثل غانة و مالي. لكن هذا الثراء كان نعمة و نقمة على المملكة في نفس الوقت، ذلك أنه لفت أنظار جيرانها و جعلها محل طمع الطامعين.

ففي سنة 717هـ/1325م عندما كان ملك سنغاي (دياإسيباي) مسافرا إلى مكة لأداء فريضة الحج، كان إمبراطور مالي (موسى كاكان) عائدا بدوره من الحج فاستغل هذه الفرصة، وعند مروره بالقرب من جاو أمر أحد قادته بالهجوم عليها. و بالتالي بسط سيطرة مالي علي سنغاي، كما أنه أسر ولدي مللك سنغاي وهما الأميران (علي كولن) و شقيقه (سليمان). و هكذا أصبحت بلاد سنغاي مجرد إماراة تابعة لسلطان مالي، واستمر الوضع على هذا الحال من الرضوخ تحت سلطة مالي لمدة فاقت القرن.

و في عام 869هـ/1464م تولى الحكم في جاو أحد أبناء الملك ديا أسيباي وهو علي كولن الذي هرب من البلاط المالي أين كان أسيرا و لقب نفسه بـ (شي كولن) أو(سني علي) و التي تعني "خليفة السلطان". و بالتالي أعلن سن علي استقلال مملكة سنغاي عن سيطرة مالي وأعاد لها قوتها بعدما قام بنهب جاو والسيطرة عليها برفقة (بر علي) عام 869هـ/1464م.

وكان الملك سkي علي ذا قوة عظيمة، لكنه في نفس الوقت ظالما فاسقا متعديا متسلطا سفاكا للدماء، سيئ السيرة قتل من الخلق الكثير. و رغم أنه كان مسلما إلا أنه كان يقتل الفقهاء و يعذب الناس بالنار حيث أنه أباد قبيلة من الفلن (البول) عن آخرها تدعى قبيلة (سنقاري) و لم ينج منها إلا فئة قليلة احتمو بشجرة. و قد مكث سن علي بالملك سبعا وعشرين سنة، اشتغل فيها بالغزوات و فتح البلدان إلى أن توفي عام 897هـ/1492م. و هكذا أعاد سن علي أمجاد مملكة سنغاي واستولى على تمبكتو وجني و كل منطقة البحيرات وسيطر على مناجم الذهب في منطقة (بيتو) وأصبح سيد نهر النيجر.

و لماتوفي الملك سن علي في احدى المعارك عام 897هـ/1492، قام أحد قادته و هو (محمد توري) بانقلاب على أبنائه عام 858هـ/1493م، واستولي على الحكم و بالتالي بدأ عهد جديد وهو عهد حكم أسرة الإسقيين.

ثالثا: إمبراطورية مالي :

1- التأسيس:

بعد تعرض إمبراطورية غانة لهجمات المرابطين ضعف ملكها و بدأت تعرف طريقها إلى الزوال. ذلك أنه حتى و إن انسحب المرابطون فيما بعد تاركين الحكم فيها بيد ملوك غانة إلا أن نهايتها كانت وشيكة، حيث بدأت الأقاليم التابعة لسلطانها تنفصل عنها الواحدة تلو الأخرى، بدأت معها مساحة المملكة تتقلص انتهت بسقوط العاصمة كومبي

صالح في أيدي حكام قبائل الصوصو الوثنين، الذين كانوا من قبل خاضعين لغانة في أيام مجدها.

ولقد استفحل أمر الصوصو وكونوا مملكة وثنية قوية على أنقاض إمبراطورية غانة فاستبدوا وبسطوا سيطرتهم على عدد من القبائل والشعوب المسلمة واستعبدوهم، و من هذه الشعوب التي تعوضت لغزوا الصوصو كان شعب (الماندينغ) أو (الماندينغو) الذي تصدى لهجمات و سيطرة ملوك الصوصو المستبدين. و كان شعب الماندينغ من بين أوائل الشعوب التي اعتنقت الإسلام في السودان الغربي، و هو ما جعل العداوة والكراهية تشتد بينهما، وتعد عائلة (كايتا) زعيمة شعب الماندينغ صاحبة الفضل في التصدي لجبروت الصوصو وحاكمها القوي الذي يدعى (سمنغورو).

و بالرغم من اعتناق أسرة كايتا الإسلام في وقت مبكر (1050م/442 هـ)، إلا أن المصادر العربية بقيت تفتقد للمعلومات الدقيقة عن البدايات الأولى لإمارة الماندبغ التي كونت فيما بعد امبراطورية مالي. فابن خلدون يذكر أن أول من أسلم من ملوك الماندينغ يدعى (برمندانه). و هي المعلومة التي أخذها عنه من جاء من بعده من المؤرخين. بينما تبقى أهم المعلومات التي تزودنا بتاريخ تأسيس مملكة مالي مصدرها الروايات الشفوية المحلية المتداولة منذ سبعة قرون، و التي تناقلها شعب الماندينغ والتي تعرفت بـ (بلن تيقي).

و مهما يكن فإن إمارة الماندينغ عرفت عدة ملوك أشهرهم (موسى كايتا) الذي يعد المؤسس الحقيقي لعائلة كيتا الحاكمة، والذي كان مسلما وحج عدة مرات، و كان له ابن يدعى (ناري فامغان). وقد عرفت إمارة الماندينغ تحولا كبيرا في القرن السابع للهجرة/13م، حيث كان يحكمها ملك من أسرة كايتا يدعى ناري فامغان (حكم بين 615هـ-628هـ/1218م-1230م) والذي كان له اثنا عشر طفلا وهم : كوتونو نيو غو سيمبا، كابالي سمبا، ماري تانيا غيلي، نوثيى ماري، بيري سيغي، صوصو تولو، لانغاديا، موسوكورو موسوغانداكي، فانتيا ماغانبا، فيينادوغو، كاوماغان كاكابوغاري، كالامبا، ديوكونتو، و أخيرا سونديانا.

وكان الملك(ناري فاماغان) في حرب مع إمارة الصوصو وأميرها الساحر الذي يدعي سمنغورو، وعند غزوهذا الأخير الإمارة الماندينغ قتل جميع أبناء ناري
فاماغان ولم ينج منهم سوى الطفل الصغير (ماري دياتا) أو (سوندياتا) ، حيث تقول الرواية أن سمنغورو احتقره و هون من شأنه بسبب عاهته. لقد كان سوندياتا معاقا ولا يقوى على الوقوف على رجليه، فعاش طفولة صعبة و ظل مقعدا لفترة طويلة، وكانت أمه (سوغولون كوندية) موضع سخرية زوجات الملك ناري فاماغان الأخريات. و تمكن في سن السابعة من السير على قدميه بفضل السحرة و أصبح يتزعم أقرابة، ثم اضطر للهرب من الاضطهاد برفقة والدته و شقيقته و توجه إلى غانة حيث احتضنته مدينة كومبي، كما أعجب به ملك ميما (منسا تونكارا) و أوكل إليه مسؤوليات كبرى.

استقل سمنغورو المكانة التي حظي بها في منفاه عند ملك ميما ليكون جيشا نظاميا ذاع صيته، فاستدعاه أهل إمارة الماندينغ إليهم فلبى الدعوة، واستقبل سندياتا بحفاوة وحماس كبيرين من طرف شعب المالنكة، و كانت كل عشيرة قد كونت جيشها وانظمت إلى جيشه الذي كان أبرز القواد من أترابه مثل (تابون وانا) وابن عمه (كامادبان). و لما جهز سندياتا

جيشه أعلن الحرب على زعيم الصوصو الملك سيمنغورو كانتي قاتل أبيه وإخوته و منتهك حرمة وطنه، و كان ذلك في عام 631هـ/1235م.

و كانت بدايات حرب سونديانا مع خصمه سمنغورو فاشلة بسبب كثرة عدد جيش الصوصو و قوتهم، بالإضافة إلى أعمال السحر التي كان يتفنن فيها سمنغورو و أتباعه. لكن بعد ذلك استغل سونديانا عدة ظروف لصالحه، منها التمرد الذي حدث في صفوف سمنغورو إذ انفصل عنه ابن أخيه (فاكولي) بعدما انتزع منه سمنغورو زوجته.كما قامت أخت سنديانا (التي كان سمنعورو قد تزوجها بدون إرادتها) والتي تدعي (نانا تريبان) بالهرب من معسكر الصوصو وهربت معها أسرار السحر التي كان يستعملها سمنغورو في حربه مع الماندينغ. لهذا فقد انضم جيش فاكولي المتمرد إلى جيش سنديانا وعبر نهر النيجر، و بدأت المعركة الحاسمة في كيرينا عام 631هـ/ 1235م التي حطم فيها جيش الصوصو واستولى على أرضهم و وسع حدود المملكة شمالا في الصحراء.

استغل سونديانا انتصاره الباهر في معركة كيرينا لينتزع ملك الصوصو و ملك غانة الذي يليه إلى البحر. ثم توجه بفتوحاته نحو الشرق في فوتا جالون، و النيجر ومنطقة جني، فما إن دخلت سنة 638هـ/1240م حتى كان سونديانا يتربع على عرش إمبراطورية كبيرة. و قام بعقد جمعية عامة في منطقة كوروكنفوقا (قرب كنقابا) و هي إحدى مدن مالي الواقعة على نهر النيجر، واجتمع بكل الماندينغ والمناطق الخاضعة له، و منح جزء من مملكته لكل واحد من حلفائه، كما بايعه زعماء القبائل الخاضعة واعترفت به إمبراطورا. و بعدما أقام الإمبراطورية رأى سونديانا بأن مدينة (جليبا) التي تتكون منهما عاصمة المملكة لم تعد تصلح ولا تتسع لبلاطه و نشاط دولته، فنقل العاصمة إلى (نياني) التي تقع فأعاد بناء المدينة التي كانت في ذلك الوقت عبارة عن خرائب[1]في مكان غير بعيد عن جيليبا. و كان قد سجل فيها أعظم انتصاراته على ملك الصوصو.

2. تطور وازدهار إمبراطورية مالي ما بين 638 و789هـ/ 1240 و1387م:

مثلت هذه الفترة أهم أدوار الإمبراطورية، سواء من حيث التوسع الجغرافي أو التنظيم العسكري وانتصاراتها، بالإضافة إلى دورها الحضاري في المنطقة. و كانت سنة 638هـ/1240م، بداية هذا العصر الذي اعتلى فيه (سونديانا) عرش الإمبراطورية المالية التي أصبح حكمها يمتد على حساب مملكة غانة بعدما ألحقتها بها.

كما بدأت في التوسع باتجاه الشرق حتى بلغت حدود بلاد البورنو، و باتجاه الشمال إلى غاية بلاد البربر و جبالهم، أما حدودها جنوبا فقد أصبحت تحاذي بلاد الهمج الوثنين، كما بلغت من جهة الغرب البحر المحيط. و حدد القلقشندى مساحتها نقلا عن العمري بأربعة أشهر طولا أو أزيد وعرضها مثل ذلك. كما اتخذ أمراء الماندينغ لقب (منسا) ومعناه السلطان، وذلك لأول مرة في تاريخهم.

[1]العربي (إسماعيل) : المرجع السابق، ص 299.

و قد سجلت الإمبراطورية عدة ملوك تعاقبوا على عرشها بدءا بسوندياتا مؤسس الإمبراطورية، مرورا بـ (منسا موسى) الرجل الصالح والملك العظيم، وأخيه سليمان وغيرهم. و كل منهم هيأ عهدا مميزا في تاريخ مالي.

أ- عهد سوندياتا : بين 638-653هـ/ 1240- 1255م:

و يعد عهده دور التأسيس و الانطلاق نحو العظمة في نفس الوقت. حيث قام سوندياتا منذ توليه الحكم بتوجيه حملات عسكرية من العاصمة (نياني) باتجاه الغرب، فوسع حدود المملكة و ضم إليها منطقة حقول الذهب الكبرى في (بامبوك). ثم واصل العمليات العسكرية حتي بلغت فتوحاته أسفل نهر السنغال ونهر غامبيا ومستنقعات التكرور، و بذلك أصبحت مالي أعظم و أقوى ممالك السودان الغربي. ولعل هذا الدور الذي بلغته مالي خلال هذه الفترة يرجع إلى المجهودات التي قام بها الملك سوندياتا في سبيل تدعيم صرح الإمبراطورية.

ففي الميدان العسكري أنشأ سوندياتا جيشا نظاميا قويا و مدربا، يقود كل فرقة منه قائد دائم يلقب بـ (كيلي بولون)، بينما يتولى قيادة الجيش العامة الملك شخصيا و يلقب بـ (كيلي تيجي). وكان الجيش ينقسم إلى : الخيالة المسلحة بالسيوف، و جيش المشاة المسلحة بالفؤوس والسهام والحراب الطويلة التي تسمى عندهم (طامبا)، والتي كانت تبعث الرعب في قلوب الأعداء.

و في الميدان الزراعي تقول الرواية الشعبية المحلية، أن سوندياتا كان يولي عناية خاصة للتنمية الزراعية، وأنه هو الذي أدخل إلي مالي زراعة القطن و الأراشيد وغيرها من المزروعات، واهتم أيضا بتربية الحيوانات. وفي الميدان السياسي فقد نظم أحوال الإمبراطورية بتشكيل جمعية عامة انبثق عنها نظام شبه فدرالي، و ولى على كل جزء من مملكته أحد حلفائه من المانديغ.

و عموما فقد أبهر سوندياتا الماليين و نسجت حول شخصيته أساطير عديدة مازالت تروى إلى غاية الوقت الحاضر. كما تنسب إليه عدة خصال ومواهب جعلت منه رجلا خارقا العادة، فهو مقاتل بارع و منظم كفء، كما يحكى عنه تمتعه ببعض القوى السحرية كذلك.

لهذا فإن المؤرخ (نياني) يقول عنه ما يلي : «من المؤكد أنه لو لم يذكر ابن بطوطة عام 1353م وابن خلدون من بعده سنة 1376م هذا الفاتح في كتاباتهما لاعتبر المؤرخون الأوربيون سوندياتا شخصية خيالية أو أسطورية، نظرا للمكانة الفائقة التي احتلها في الروايات الشفوية لتاريخ مالي». و قد اختلفت المصادر التاريخية حول مدة حكم سوندياتا، فمنهم من يقول خمس وعشرون سنة، و منهم من يقول حكم مدة عشرين سنة. كما يذهب آخرون إلى أنه لم يحكم سوى خمس عشرة سنة،و بالتالي فوفاته تكون بين عامي (1255م/635هـ) و(1265م/664هـ. وكانت وفاة سوندياتا مفاجئة و مؤلمة، حيث تعرض لضربة سهم طائش من قوس ابن صديقه أثناء إقامة حفل للرماية على شرف سوندياتا. وبذلك ينتهي عصر يبقى من أزهي عصور إمبراطورية مالي.

ب- عهد خلفاء سوندياتا :

صحيح أنه إلى غاية القرن 13م/7هـ لم تكن مالي سوى عبارة عن مملكة متواضعة، و أن سوندياتا هو الذي صنع عظمة مالي إلى درجة أن القرن الثالث عشر للميلاد/السابع

للهجرة اعتبر عصر سوندياتا. لكن يجب الإشارة إلى أن سوندياتا ترك وراءه جيلا من الملوك الذين خلفوه و حافظوا على هيبة الإمبراطورية و مكانة عائلة (كايتا).

فهناك نوعان من المصادر التي تتحدث عن خلفاء سوندياتا، فمنها الروايات والمخطوطات الخاصة بشعب الماندينغ المعروفة بروايات (كيتا ديوما) والتي قدمت لنا قائمة كاملة لزعماء و حكام مالي. بالإضافة إلى المصادر العربية وأهمها ابن خلدون الذي يعد أول من ذكر قائمة بأسماء ملوك الماندينغ.

لكننا نجد هناك بعض الاختلاف في الأسماء بين ما ذكرته التي ذكرتها الروايات المحلية و ما ذكره ابن خلدون. و هذا يعود ربما إلى كون ابن خلدون عرف أسماء حكام مالي وغانا عن طريق بعض العلماء العرب الذين إلتقاهم بالحج، و منهم الشيخ عثمان فقيه أهل غانة الذي التقى به بمصر عندما كان متجها إلى الحج، والحاج يونس (ترجمان التكرور)، والقاضي أبو عبد الله محمد بن واسول وهو (قاضي من سجلماسة) وغيرهم. و بالتالي عرف تلك الأسماء بلسان عربي يمكن أن يكون محرفا عن الأسماء الأصلية. بينما كان لملوك مالي ألقاب أخرى يلقبون بها عند شعوبهم.

ومهما يكن فان الترتيب الذي ذكره بن خلدون في أسماء خلفاء سوندياتا يعتمد عليه كثيرا من طرف المؤرخين العرب و حتى الأجانب.

لقد خلف سوندياتا بعد وفاته ابنه (منسا ولي) و مسنا تعني (السلطان) و ولي تعنى (علي) بلسانهم، و الذي حكم بين عامي (653هـ-668هـ/1255م-1270م) وكان من أعظم ملوكهم، فقد أدى فريضة الحج في عهد الملك الظاهر بيبرس، كما شهدت الإمبراطورية في عهده اتجاه نجد نحو اللامركزية، بعدما أقطع الأراضي لقادته الكبار.

و بعد وفاة الملك منسا ولي عام 668هـ/1270م خلفه (أبو بكر الأول) الذي كان يحمل لقب (مندي بوري) و التي تعنى انتماءه إلى سوندياتا عن طريق أنثى. و بذلك يكون رأي ابن خلدون هو الأرجح عندما يشير إلى أن سوندياتا لم يكن له أبناء غير منسا ولي، و أن أبا بكر الأول كان ابن بنت سوندياتا.

و على كل فإن أبا بكر الأول تميز بالضعف، و كثرت الخلافات حول العرش في عهده و تلاشت قبضته على الإمبراطورية. لهذا فإن وفاة الملك أبي بكر الأول أحدثت غموضا كثيرا في تاريخ مالي. حيث لما توفي الملك أبو بكر الأول عام 683هـ/1285م، واجه البلد مشكلة بشأن من يخلفه على العرش. و في ظل هذه الفوضى ظهر رجل من القادة العسكريين، - والذي كان من الموالي العبيد في السابق قبل أن يتحرر- و هو (سكورة) الذي استولى على الحكم عام 683 هـ/1285م، و نصب نفسه إمبراطورا جديدا على مالي.

لقد أحدث استيلاء سكورة على عرش مالي انقطاعا لحكم أسرة كيتا دام خمس عشرة سنة (من 683 هـ إلى 700 هـ/ 1285 م إلى 1300 م)، حيث يعد أول إمبراطور لمالي لا ينتمي إلى عائلة كايتا. لكن الأحداث أثبتت أنه كان ملكا كفؤا، بارعا في الحرب وفي السياسة. واستطاع أن يعيد لمالي هيبتها، و عمل على توسيع رقعتها أكثر، حيث مدد حدودها شرقا

على حساب مملكة (كوكو) حديثة الظهور أنذالك، أما غربا فقد ضم منطقة (مسينا)، و أصبح ملك التكرور تابعا له.

كما تميز سكورة بالتقوى و شهد له بالحج أيام الملك الناصر. واستطاع أن يعيد لمالي الأمن و الاستقرار، و قضى على دابر الفوضى إلى أن توفي عام 700 هـ/1300م، حيث قتل عندما كان عائدا من الحج عند منطقة (تاجورة) قرب طرابلس. و قام رفقاؤه في السفر بتحنيط جثته و وضعوها في جلد ثور، و نقلوها إلى بلاد الكانم بورنو، التي بعث ملكها بمن يحمل جثته لتدفن في مالي.

و رغم وفاة سكورة تمثل نهاية ملك حاول الحفاظ على قوة الإمبراطورية و تماسكها، إلا أنها كانت فرصة لعودة الحكم مرة أخرى لعائلة كيتا. حيث تقول المصادر العربية أنه بعد وفاة سكورة توالى على عرش مالي كل من الملك (قو) ثم من بعده ابنه (محمد بن قو)، إلى أن انتقل الملك بعد ذلك إلى (أبي بكر الثاني) و هو ابن أخ سوندياتا. بينما لا نجد ذكر للملكين الذين سبقا أبا بكر الثاني عند المراجع الأجنبية و لا حتى الروايات الشعبية المحلية المعروفة باسم (كيتا ديوما).

و قد تولى عرش مالي أبو بكر الثاني في عام 703 هـ/1303م الذي اشتهر بطموحه الكبير، الذي أدى به في سنة 1310م إلى تجهيز مائتي سفينة و أرسلها إلى المحيط الأطلسي من أجل الاستطلاع و البحث عما يوجد وراء هذا البحر الذي كان يطلق عليه آنذاك اسم (بحر الظلمات)، و لكن بعد فترة لم تعد سوى سفينة واحدة من السفن التي أرسلها، لذلك أرسل بعد ذلك ألفي سفينة أخرى، لكن هذه المرة لم تعد و لا سفينة. و هكذا راح الملك أبو بكر الثاني ضحية طموحه حيث اختفى مع السفن التي أرسلها و لم يعد. و بالتالي شهدت الإمبراطورية بعده عهدا جديدا عندما تولى الحكم فيها الملك المشهور (موسى كاكان) ابن أبي بكر الثاني.

ج - عهد موسى كاكان (منسا موسى) بين 707هـ إلى 729هـ/1307إلي 1329م :

هناك اختلاف بين المؤرخين المعاصرين حول تحديد بداية عهد منسا موسى، فهناك من يحددها بسنة 707هـ/1307م[1] بينما يحددها آخرون سنة 712هـ/1312م. و لعل ذلك اختلاف مرده إلى الغموض الذي انتهي إليه مصير أبيه أبي بكر الثاني خلال رحلته إلى المحيط الأطلسي. ذلك أن الملك منسا موسي لم يتول عرش مالي حتى انقطعت أخبار أبيه أبي بكر الثاني. و يصنف عهد مسنا موسى بأكثر العهود ازدهارا و شهرة في تاريخ السودان خلال العصور الوسطى، و ذلك نتيجة للدور الذي قام به هذا الملك.

كان منسا موسى بن أبي بكر رجلا صالحا و ملكا عظيما، أدى فريضة الحج عام 724هـ/1323م. كما كان يعتق كل يوم نفسا.و يحكى عن هذا الملك الذي كان يلقب أيضا بـ (موسى كاكان) أو (كنكن موسى) أنه لما خرج إلى الحج في أحد المواسم حمل معه قوة عظيمة، و مالا عظيما و جيشا عرمرما و معه ثمانون ألفا من الجند وخمسمائة من النسوة وثمانية آلاف و سبعمائة من العبيد، و قيل ستون آلف رجل و خمسمائة من العبيد.

[6] CORNEVIN : Opcit, P 163.

أما أعماله العسكرية فقد كانت مهمة وكثيرة، فكان أول ما قام به هو بناء جيش قوي حتى أصبح لديه أقوى جيش في السودان الغربي كله خلال تلك الفترة، و بعد أن فتح مناطق واسعة في الغرب حتى المحيط الأطلسي توسع باتجاه الشرق إلى أن وصلت حدود مملكته مشارف بحيرة تشاد.

و لما كان يدرك الأهمية الحيوية التي كانت تلعبها مناطق التقاء الطرق التجارية من الناحية الاقتصادية والسياسية، فإن منسا موسى قام بالسيطرة على مملكة سنغاي عام 717هـ/1325م، بحيث استغل أمير جيشه الملقب بـ (سقمان) فرصة غياب ملك سنغاي (ديا أسيبا) عن المملكة لأداء فريضة الحج، فاستولى على جاو، و قدمها كهدية لمنسا موسى لما عاد من الأراضي المقدسة، بعدما أخذ أميري سنغاي كرهينتين، فحول منسا موسى اتجاه سيره من نياني (عاصمة مملكته) إلى جاو (كوكو) التي دخلها فاتحا أين استقبله أمراؤها وقدموا له فروض الطاعة والولاء.

و واصل منسا موسى فتوحاته حتي أصبحت الإمبراطورية تضم كل التجمعات البربرية الواقعة جنوب الصحراء، وامتدت سلطة ملكه جنوبا إلى غاية غابات غينيا، وشرقا حتى بلاد الهوسا.

و من أعماله التوسعية العظيمة فتحه لمدينة تمبكتو، إذ يعد أول من دخلها فاتحا من ملوك مالي و جعل خليفة له فيها، وابتنى بها دارا للسلطنة فسميت بـ (مع دك) ومعناها في لغة المالينك دار السلطان، كما بنا صومعة الجامع الكبير بها. وقد اعتنى منسا موسى ببناء تمبكتو حتى أصبحت البلد الأم للتجارة في بلاد السودان في العصور الوسطى. كما أصبحت مالي في عهده محطة علمية بقدوم الفقهاء والأدباء والعلماء، و كان منسا موسى من أكبر الدعاة للإسلام أيضا.

أما دبلوماسيا فقد أخرج منسا موسى مملكة مالي من عزلتها واكسبها سمعة دولية، حيث ربط علاقات دبلوماسية مع سلاطين القاهرة و المغرب الأقصى اللذين كان لهم سفراء في بلاط ملك مالي. كما كان لهذا الأخير سفراء في القاهرة و مراكش. فبفضل منسا موسى نال اسم مالي شهرة كبيرة في الأندلس ومراكش و خراسان، إذ أنه في سنة 731هـ/1339م، وجد اسم مالي مكتوبا على خرائط العالم التي وضعها الجغرافي الإيطالي (أونجيلو دولسرت)، كما وجد في الأطلس الجغرافي الذي وضعه (أبراهام كريسك) لشارل الخامس ملك فرنسا، و فيه اسم مالي مرسوم بوضوح.

كما سجل الرحالة و التاجر الإيطالي (مالفنت) في مذكراته أن جمهورية ايطاليا كانت تطمح للاتصال بمالي والتعاون معها في عهد منسا موسى. و هكذا استطاع هذا الملك أن يعيد مجد مالي و يحافظ على استمرارها.

أما تاريخ وفاة منسا موسى فقد حدث خلاف حول تحديده، فبينما يحدده إسماعيل العربي سنة 733 هـ/1332م. فإن الزوجين (كورنفان) يحددانها بعام 736هـ/1335م. لكن من المرجح أن يكون قد توفي سنة 733هـ/1332م، و ذلك لأن خليفته على العرش و هو ابنه (منسا مغا) هلك بعد أربع سنوات من الحكم، و ولي بعده شقيقه (منسا سليمان) بن أبي بكر الثاني. وإذا علمنا بأن منسا سليمان حكم عام 737هـ/1336م، فإن سنة وفاة منسا موسى قد

تكون في عام 733هـ/ 1332م. و مهما يكن فإن وفاة منسا موسى تركت فراغا رهيبا في مالي، حيث عمت الفوضى بمجرد تولي ابنه (مسنا مغا) الحكم وذلك بسبب افتقاده لصرامة أبيه و حزمه. و عرف بالتساهل في إدارة شؤون المملكة، وهو الشيء الذي مكن ابنا ملك جاو الرهينتين من الفرار، كما وقع في عهده نهب مدينة تمبكتو على يد الموسيين.

و بعد وفاة منسا مغا، تولي العرش بعده (منسا سليمان) بن أبي بكر وهو أخو منسا موسى الذي اجتمع له ما كان أخوه قد افتتحه من بلاد السودان ، و رغم صفة البخل التي تميز بها منسا سليمان، إلا أنه استطاع إصلاح شؤون البلد المالية، وأعاد الأمن إلى المملكة، إذ لم يكن يسامح أحدا في أي جانب منه، كما استعاد سيطرة مالي على الولايات الشرقية، وأصبح في عهده رؤساء الطوارق في تكدا يعترفون بسلطانه و يدينون له بالولاء، فاستفادت بذلك المملكة من نحاسها. كما واصل سيرة أخيه نشر الإسلام و بناء المساجد و الجوامع والمنارات و حرص على صلاة الجماعة و إقامة الأذان.

و قد حكم منسا سليمان بين سنتي 724هـ و762هـ /1341 م و 1360م، أعاد خلالها مجد المملكة الذي ميز فترة حكم أخيه، و حافظ على العلاقات الدبلوماسية التي ربطها منسا موسى مع ملوك المغرب الأقصى.

و بوفاة منسا سليمان عام 762هـ/1360م دخلت المملكة في عهد جديد من الفوضى والصراع حول العرش الذي أدى إلى سقوطها.

. سقوط إمبراطورية مالي:

إن بداية انحطاط إمبراطورية مالي كانت مع وفاة منسا سليمان. حيث خلفه ابنه (قنبتا بن سليمان)، و يلقب أيضا بـ(كاسا سليمان)،والذي حكم فترة قصيرة قدرات بتسعة أشهر فقط، ثم ولي بعده (ماري جاطة بن مسنا مغا بن منساموسى) والذي حكم مدة أربعة عشر عاما.

وكان ماري جاطة هذا شر الناس حسب ابن خلدون ، حيث أساء السيرة و أفسد ملك مالي وأتلف ذخائر البلاد، بكثرة إسرافه وتبذيره إلى درجة أنه قام ببيع حجر من الذهب تزن عشرين قنطارا إلى تجار من مصر بأبخس الأثمان، رغم أن تلك الحجرة كانت تعد أنفس ذخائر ملوك السودان نظرا لندرة وجود مثلها. كما اشتهر بالكسل وعدم اكتراثه بشؤون البلاد إلى أن توفي عام 776هـ/1374م، حيث أصابته في أخر أيامه علة النوم والشعور بالنعاس، وهو مرض كثير ما كان يصيب أهل تلك البلاد، واستمر به المرض لمدة سنتين إلى أن توفي.

بعد ماري جاطة خلفه ابنه موسى الثاني، الذي حكم مابين (776هـ و789هـ/ 1374م و1387م والذي حاول أن يعيد الإمبراطور إلى نصابها عن طريق تطوير الإدارة والعدالة. لكنه تغلب عليه وزيره (ماري جاطة) الذي كان يتصرف بشؤون الدولة كما يشاء، و تحكم في مقاليد الحكم، و قام بتدبير أمور الدولة أحسن تدبير، كما قام هذا الوزير بغزو مدينة تكدا الغنية بالنحاس، وقاد حملة إلى بلاد البورنو وحملة أخرى على التوارق . و رغم استيلاء ماري جاطة على السلطة إلا أنه أبقى على الملك موسى الثاني و لم يزحه عن العرش إلى أن توفي عام 789هـ/1387م.

و بعد وفاة موسى الثاني، قامت نزاعات واغتيالات من أجل الاستحواذ على السلطة بين الأشقاء والأقارب أدت إلى انهيار المملكة، حيث انتقل الحكم إلى أخيه (منسا ماغا الثاني) الذي قتل بعد سنة واحدة من توليه الحكم. ثم استولى على الحكم زوج أمه و المسمى بـ (صندكي) ومعناه الوزير، ثم قتل بعد أشهر من طرف رجل من بيت ماري جاطة و خلفه رجل اسمه (محمد)، و يدعي انتسابه إلى (منسا قو بن منسا ولي بن ماري جاطة) و ذلك عام 793هـ/1390م.

وفي هذه الفترة من الضعف والنزاعات الداخلية، كانت قد ظهرت قوة كوكو (جاو) التي أخذت تضم ولايات مالي الواحدة تلو الأخرى إلى أراضيها حتي استولت على جني وهي إحدى المراكز التجارية الهامة لمالي.

المحور الرابع
الإسلام في افريقيا جنوب الصحراء

أولا: انتشار الإسلام:

يذكر المؤرخ الفرنسي (قيلي *Guilly*)، أنه بانتشار الإسلام يبدأ العصر التاريخي لإفريقيا السوداء. والمقصود هنا بالعصر التاريخي هو بداية الحضارة، أي بروز الخصائص الحضارية لإفريقيا الإسلامية.

إن هذا التعبير يعطي للإسلام دور عظيما في تاريخ السودان بصفة عامة، والسودان الغربي بصفة خاصة. حيث كان يمثل أهم عامل ربطه بالعالم الإسلامي، و قربه من المغرب الإسلامي.

لقد بدأ انتشار الإسلام منذ وقت مبكر في شمال السودان، و بدأ يتسرب إلى الداخل باتجاه الجنوب تدريجيا، و ببطء شديد، بسبب عدة عوامل مناخية و جغرافية ارتبطت بظروف الصحراء الكبرى القاسية، و التي تفصل السودان الغربي عن بلاد المغرب الإسلامي. كما أن الاتصال بالمناطق الداخلية للسودان ظل ضعيفا، بسبب تشتت القبائل التي كانت تعيش على شكل مجتمعات قليلة العدد، و متفرقة عن بعضها البعض، و التي صعبت الاتصال بهم. كما أن وجود تلك الغابات الكثيفة في أقصى الجنوب شكل حاجزا أخرا أمام الاتصال بالقبائل السودانية.

وهناك عامل آخر صعب من انتشار الإسلام في المنطقة، ألا و هو التركيبة القبلية لتلك المجتمعات،التي تعد أكثر تمسكا بتقاليدها الأسرية والدينية، و التي تعد أساس تسيير شؤونها. بالإضافة إلى نمط الحياة البدائية الذي ميزهم، والذي أعاق اندماجهم في الحياة الإسلامية ذات الطابع الحضاري الراقي.

بينما شمال السودان (والذي تمثله شواطئ الصحراء الكبرى)، و خاصة الغربية منها، فإن شعوبها من البدو الرحل وجدوا في الإسلام خير بديل عن حياتهم البسيطة والمتنقلة. إذ كانوا أكثر قابلية للاندماج في هذا الدين الجديد، و كانوا يرون في دعوة الإسلام إلى التجارة بين الشعوب نوعا من التحضر، والانتقال من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار والتطور. فتعاليم الإسلام كانت بالنسبة إليهم تتطابق مع الحياة المثالية التي كانوا يحلمون بها، خاصة طبقة التجار منهم.

1- دور التجارة في نشر الإسلام :

إن عظمة الإسلام تكمن في تعاليمه السمحة، التي تدعو إلى مكارم الأخلاق والمعاملة الحسنة و تهذيب خلق الإنسان. وهي الأخلاق التي اكتشفها أهل السودان في التجار المسلمين، الذين كانوا يمثلون سفراء حقيقيين للدين الإسلامي، حيث لعبوا دورا عظيما في إعطاء صورة جيدة عن الإسلام و مبادئه التي وجدها سكان السودان مبادئ بسيطة، غير معقدة، من خلال عقيدة عبادة الله الخالق الواحد، الذي لا يحتاج إلى واسطة بينه و بين العبد. كما أن أغلب هؤلاء التجار ينحدرون من أسر طيبة ومشهورة بتدينها، وكان الإسلام يمثل بالنسبة إليهم جواز سفر لهم و لتجارتهم.

صحيح أن التجارة ربطت السودان بشمال إفريقيا حتى قبل وصول الإسلام إلى المنطقة، إذ تعود إلى 500 سنة قبل الميلاد، و ربما قبل ذلك، عن طريق البربر القدامى الذين كانوا يتوغلون عبر الصحراء بواسطة العربات والأحصنة إلى غاية إفريقيا الاستوائية. كما كان القرطاجيون يحملون سلعتهم إلى غاية السواحل الغربية لإفريقيا السوداء، أين كانت سجلماسة من أقدم المحطات التجارية. لكن أعظم فترة لانتشار وازدهار التجارة في المنطقة تزامن مع دخول الإسلام، حيث أصبحت تحمل معها مظاهر النبل و السلم و الرفاهية، عن طريق أخلاقيات التعامل التجاري التي ميزت التجار المسلمين عن سابقيهم.

إن المسلمين القادمين من شمال إفريقيا نحو شواطئ الصحراء عبر القوافل التجارية، طوروا الحركة التجارية للسودان، حيث أصبحت عدة عائلات كبيرة تشتغل بتصدير الذهب. وهو ما جعل هذا النشاط ينفصل عن الزراعة و الرعي، و يغير من النمط المعيشي لهؤلاء السكان، الذين ارتبطت حياتهم بالمعتقدات الإفريقية. و بفضل هذا التأثير الاقتصادي للتجار المسلمين نشأت جالية مسلمة وسط عدد من المراكز التجارية، وبدأت تتشكل المدن التجارية، و التجمعات الحضرية المستقرة بين القبائل السودانية المنتشرة عبر تلك الطرق التجارية.

لهذا فإننا نقول بأن الوضع الاقتصادي كان له دور كبير في مدى انتشار الإسلام. ذلك أن المدن والتجمعات الكبرى عرفت الإسلام قبل غيرها، حيث دخل الإسلام عن طريق الأفراد (أي التجار)، لكنه اقتصر على أصحاب الأموال والتجار في بداية الأمر، كما شمل أصحاب الأسواق والمحلات التجارية الذين كانوا أكثر اتصالا واحتكاكا بالتجار المسلمين.

ان يطلق على التجار المسلمين أسماء مختلفة من طرف الشعوب السودانية، حيث كانوا يلقبون بـ (ديولا) عند المالنكي (و هم سكان نهر النيجر الأعلى، و من مؤسسي إمبراطورية مالي). و يلقبون بـ (الماركا) عند شعب البامبارا، (وهم سكان جني). كما نجدهم في المصادر العربية كابن بطوطة ومحمود كعت بـ (الونغارا).

وكان التجار المسلمون ينقلون الإسلام حيث امتدت طرقهم التجارية في بلاد السودان. حيث كان التجار المسلمون يبسطون أنفسهم في السودانية منذ أواخر القرن الأول للهجرة، قادمين من مصر عبر الطريق القديم (عبر صحراء الكفرة). لكن عددهم كان قليلا وتأثيرهم كان ضعيفا، و ما إن حل القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، حتى بدأ يظهر التأثير الحقيقي للمسلمين في المنطقة، لكن هذه المرة عن طريق التجار البربر المغاربة. حيث تشير بعض الروايات السودانية، بأن الإسلام خلال هذه الفترة استقبل من طرف عدة ملوك سودانيين، الذين كانت تربطهم علاقات تجارية جد متطورة مع شمال إفريقيا، خاصة زعماء جاو الذين يعدون من الأوائل الذين دخلوا الإسلام.

وهكذا بدأ الإسلام يتوغل عن طريق الصحراء إلى إفريقيا، بواسطة التجار البربر من البدو الرحل، و توطن في بلاد السودان، حيث كان أوائل المسلمين الذين عاشوا في المنطقة حوالي القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، هم التجار البربر والعرب، الذين استقروا في الأسواق المشهورة في شواطئ الصحراء الجنوبية، و كانوا يبتاعون العبيد والذهب والعاج، وبعضهم توغل إلى الداخل وتقرب من الزعماء المحليين المسيطرين على هذه التجارة، و الذين سرعان ما أسلموا،ثم بدأ التجار المسلمون ينشرون الإسلام ويدعون إليه، و تزوجوا بنساء سودانيات، و كونوا أسرا مسلمة.
كما أن هؤلاء التجار، كان فيهم العلماء والفقهاء، الذين تقربوا هم كذلك من ملوك السودان وأمرائهم، وتبوؤوا مكانة مميزة لديهم، مما جعل الشعب بعد ذلك يقلد ملوكه، و يتبعهم في اعتناق الدين الجديد.

وعموما فان انتشار الإسلام في المنطقة كان سلميا في أغلبه،أي عن طريق التجارة لكنه بقي سطحيا، حيث أن الإيمان الحقيقي لم يتوغل جيدا بعد، كما أن العلوم الإسلامية أخذت تنتشر بوتيرة بطيئة، واقتصرت على المدن دون غيرها من المناطق الريفية، أين بقيت الكثير من الشعوب البدوية وفية لمعتقداتها الوثنية، بل حتى المسلمون منهم لم تكن تربطهم بهذا الدين سوى الشهادتان ومظاهر العبادة. و هو ما يعني أن التجار قاموا بدور لا يستهان به في نشر الإسلام، و نقله إلى بلاد السودان، لكن بقي الدور الكبير الذي قامت به الفتوحات الإسلامية.

أ . بداية الفتح الإسلامي :

إن المصادر العربية الخاصة بالفتوحات الإسلامية في منطقة إفريقيا، لا تمدنا إلا بإشارات مقتضبة عن بداية الفتح الإسلامي في بلاد السودان.
وكانت أولى حملات الفتح الإسلامي بعد فتح ولاية افريقية تعود إلى عقبة بن نافع الفهري، الذي يكون أقصى ما وصل إليه خلال ولايته الأولى، هي بعض المناطق الصحراوية، حيث فتح ودان (قرب مدينة زويلة)، ومدينة فزان (جنوب طرابلس)، وذلك عام 46 للهجرة

/666م، بالإضافة إلى مدينة كوار (الواقعة جنوب فزان). أما في ولايته الثانية، فيكون قد وصل إلى السوس الأقصى، وكان ذلك عام 62هـ/685م.

إن بن عبد الحكم لا يفصل أكثر من هذا، بينما نجد أن البكري يشير إلى أن عقبة بن نافع قد وصل إلى أبعد من ذلك، و أنه بلغ مدينة نفيس، التي تقع في الركن الجنوبي من بلاد السودان بمحاذاة البحر المحيط، حيث يقول : « و من أغمات وريكة إلى مدينة نفيس، وهي تعرف بالبلد النفيس كثيرة الأنهار و الثمار ليس في ذلك القطر موضع أطيب منه، و لا أجمل نظرا، و هي قديمة أولية، غزاها عقبة بن نافع صاحب رسول الله عليه وسلم، و حاصر بها الروم و نصارى البربر، و كانوا قد اجتمعوا بها لحصانتها وسعتها، فلزمهم حتى فتحها، و بنا فيها مسجدا إلى اليوم و أصابوا فيها غنائم كثيرة، وذلك سنة اثنين وستين، وهي اليوم آهلة عامرة بها جامع وحمام وأسواق جامعة».

و بعد هذه الرواية لم نجد إشارات أخرى عن الفتح الإسلامي في بلاد السودان، مما يجعلنا نعتقد بأن الفتوحات الإسلامية الأولى لم تتجاوز الشواطئ الجنوبية للصحراء، ولم تتوغل إلى بلاد السودان، و هذا ربما يعود إلى مقتل عقبة بن نافع، وانشغال الفاتحين من بعده بفتح الأندلس، التي كانت تبدو أكثر أهمية من بلاد السودان. بالإضافة إلى المخاطر التي كانت تواجه الفاتحين الأوائل من القبائل البربرية الوثنين، و كذا هجمات الأسطول البيزنطي على سواحل قرطاجة، و على بعض الثغور البحرية في سواحل المتوسط.

ومهما يكن من أمر، فإن الفتح الإسلامي في بلاد السودان لم يتوقف عند ذلك الحد، بل أننا وجدنا إشارات مهمة في المصادر العربية، تتحدث عن استمرار عملية الفتح في عهد الأمويين، حيث يكون عبد الله بن الحبحاب، قد بعث مشروع فتح السودان من جديد، ففي سنة 116هـ، أرسل حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري غازيا إلى السوس الأقصى، ولم يقابله أحد إلا ظهر عليه، ولم يترك قبيلة إلا و فتحها و سباها. و يرجح البكري أن يكون هذا الجيش الذي أرسله الأمويون، قد دخل مملكة غانة لنشـــرالإسلام، ثم استقر بعضهم هناك، و خلفوا ذرية كونت ما يعرف في و يرجح البكري أن يكون هذا الجيش الذي أرسله الأمويون، قد دخل مملكة غانة لنشر عهده (خلال القرن الخامس للهجرة) قوم يعرفون بـ(الهنيهين)، و الذين يقول عنهم بأنهم وثنيون علي دين أهل غانة، ولا يتزوجون مع السود. وعلى كل حال فإننا نرجح أن يكونوا مسلمين، لكنهم يخفون إسلامهم، على عادة بعض ملوك السودان آنذاك. ذلك أن الإسلام كان ما يزال في بداية عهده.

كما يحمل إلينا البكري، إشارات أخرى حول حملات الأمويين لفتح بلاد السودان، من خلال ذكره للآبار الموجودة في المجابة الكبرى للصحراء الواقعة جنوب درعه، و التي يقول عنها بأن الجيش الذي أرسله بنو أمية لفتح السودان هو الذي حفره.[2]و رغم ذلك كله، فإن تلك الفتوحات التي بدأت منذ صدر الإسلام، و رغم قدمها، إلا أن دورها بقي بطيئا في نشر الإسلام، ذلك أن أكبر فترة لانتشار الإسلام في المنطقة، كانت خلال عهد المرابطين.

ب. دور المرابطين :

لا شك أن دور التجار المسلمين، قد ساهم بقسط وفير في نشر الدعوة الإسلامية في بلاد السودان الغربي، منذ صدر الإسلام و مجيء أولى القوافل الإسلامية إلى المنطقة. كما

أن الفتوحات الإسلامية الأولى في عهد عقبة بن نافع، التي وصلت إلى مشارف الصحراء، وتوغل الأمويين بالدين الجديد إلى قلب هذه الصحراء، كان ذا أهمية بالغة أيضا. إلا أن السودان لم يدخل بعد في التاريخ الإسلامي، بالمعنى الذي يؤثر في الحياة العقدية، التي كانت إلى غاية القرن الرابع للهجرة، تسيطر عليها الكثير من المعتقدات البدائية، من عبادة الأرواح و الأجداد المعروفة في إفريقيا السوداء.

كما أن المنطقة بقيت رغم وصول الإسلام إليها، تحتفظ بآثار الديانات السماوية الأخرى التي عرفها السودان الغربي قبل مجيء الإسلام. حيث توجد هناك فرضيات بوجود المسيحية واليهودية في بلاد السودان قبل الإسلام، انتقلت من شمال إفريقيا عبر التجارة كذالك،لكننا لا نملك دلائل قوية على ذلك.

لكن هناك إشارات وفيرة في المصادر العربية، تبين أنه منذ القرن الرابع للهجرة كان الإسلام قد توغل إلى المدن السودانية، و لم يتأخر في التأثير على الأقل في زعماء القبائل السودانية و ممالكها، على غرار غانة و مالي و الكانم بورنو، لكن دون أن يكون قد توغل داخل بقية الشعوب الريفية، التي بقيت مخلصة لدياناتها ومعتقداتها الوثنية، على غرار شعوب الموسي والبامبارا و غيرها.

إذا فالإسلام، بقي ديانة المدن والتجمعات الحضرية، كما بقي إسلاما سطحيا، و لم يتوغل جيدا في الحياة اليومية لسكان الصحراء والسودان. إن هذا الوضع تطلب فتحا جديدا للإسلام، أي فتحا حقيقيا يكمل ما كان قد بدأه التجار والفاتحون الأوائل. و يعمل على غرس العقيدة الإسلامية في بلاد السودان، و يخلصها من الشوائب التي بقيت عالقة بها، و إخراجها من الديانات الوثنية، وحتى السماوية كالنصرانية و اليهودية،و بالتالي ربط بلاد السودان بالعالم الإسلامي.

إن هذا الدور العظيم، يتطلب رجالا ذوي عقيدة متينة، و دولة قوية، و هو ما يتوفر في المرابطين، الذين تعد دولتهم أول قوة وحدت المغربين الأقصى و الأوسط، و لعبت دورا كبير في نشر الإسلام في الساحل الإفريقي الغربي و بلاد السودان.

و رغم أن دولة الأدارسة التي سبقتهم، قامت بدور مهم في نشر الإسلام في الصحراء الكبرى، ووصلت إلى سواحلها الجنوبية، مستكملة عملية الفتح. حيث ضمت قبائل الصحراء البربرية تحت لوائها، و وحدتها تحت راية الإسلام، إذ بايعت قبيلة (أوربة) البربرية مؤسس دولة الأدارسة (إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب)، المعروف بإدريس الأول و ذلك عام 172هـ 788م، وتبعته بعض القبائل الأخرى، مثل صنهاجة وهوارة وزناته.

كما أخذ أبو خالد بن يزيد البيعة لإدريس الثاني من القبائل البربرية، وخاضا حروبا كثيرة مع بربر المغرب الأقصى، واستطاع أن يمد نفوذه وسلطانه إلى بلاد المصامدة، وأن يستولي على نفيس و أغمات سنة 197هـ/812م. و بالتالي تمكن من نشر الإسلام بين هذه الشعوب التي كانت ما تزال على دين النصارى واليهود.

إن خضوع البربر لطاعة إدريس الثاني، وتوحيدهم تحت سلطانه، زاد في تحول قبائل صنهاجة كذلك إلى الإسلام، الذي كان قد بدأ في عهد عقبة بن نافع، وازداد في عهد

الأدارسة، وانتشر بين بربر الصحراء المعروفين بالملثمين في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، وكان لإسلامهم أثر بالغ في تاريخ المغرب و بلاد السودان. إن إسلام الملثمين تمخض عنه قيام حلف قوي ضم القبائل البربرية بزعامة لمتونه، و أخذوا على عاتقهم مهمة نشر الإسلام نحو الجنوب، في الصحراء و بلاد السودان، مدفوعين في ذلك بحماسهم للجهاد، وحداثة عهدهم بالإسلام، و فلستهم القائمة على التشدد في أمور الدين، واحتقارهم حياة الدنيا و العزوف عن ملذاتها. كما ساعدهم على ذلك الضعف الذي بدأ يتسرب إلى مملكة غانة، خلال هذه الفترة، و إغارة أعدائها عليها.
إن ابن خلدون يؤكد هذا الرأي بقوله: «أن أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم، واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جانب الشمال، مما يلي البربر كما ذكرنا، وعبروا على السودان(كذا)، واستباحوا حماهم، واقتضوا منهم الأتوات والجزي(كذا)، وحملوا كثيرا منهم على الإسلام فدانوا به».

وكانت بداية سير الملثمين إلي بلاد السودان عام 433هـ/1042م، على رأس قوة عظيمة باتجاه مملكة مالي، التي كان على عرشها (سوندياتا)، و كان يتزعم الملثمين يحي بن إبراهيم من قبلية جدالة، و هي إحدى قبائل صنهاجة، والتي خلفت لمتونه في قيادة الملثمين. و كان يحي بن إبراهيم شيخا تقيا ورعا، يدعو إلى الحق و يحارب المظالم ، و هو من أهل السنة ، متمسك بمذهب مالك بن انس.

و كان برفقته فقيه من قبيلة جزولة ،يدعى عبد الله بن ياسين الجازولي، الذي استقبلته قبائل جدالة و لمتونة و بالغوا في إكرامه. و كان يعلمهم القرآن، و يلقنهم أصول الدين،و آداب الشرع. كما أخذ بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، و يصلح الكثير من أخلاقهم الفاسدة التي ألفوها.الا أنه لم يلق نجاحا كبيرا في دعوته، و كان ذلك نتيجة النزاع القبلي القائم بين القبائل الصحراوية، و طبيعتهم البدوية.

ولما رأى عبد الله بن ياسين إعراض الناس عن دعوته، وإتباعهم لأهوائهم، عزم على الرحيل عنهم إلى بلاد السودان، التي كان أهلها قد دخلوا الإسلام في ذلك الوقت. إذ كانت أودغست، تحت سيطرة ملك مسلم من صنهاجة ، الذي كان بدوره يسيطر على حوالي عشرين أميرا مسلما من السودان [3] لكن يحي بن إبراهيم لم يتركه وقال له: "إنما أتيت لأنتفع بعلمك في خاصة نفسي، و ما علي فيمن ضل في قومي.« ذلك أن قومه لم يكن عندهم من الإسلام إلا الشهادة دون سواها من أركان الإسلام ثم ، قال يحي بن إبراهيم لعبد الله بن ياسين: هل لك في رأي أشير به عليك إن كنت تريد الآخرة ؟ قال و ما هو ؟ قال ها هنا جزيرة في البحر، و فيها الحلال المحض من شجر البرية وصيد البر والبحر ندخل فيها ونقتات من حلالها، و نعبد الله تعالى حتى نموت. فقال عبد الله بن ياسين إن هذا الرأي حسن، فهلم بنا (كذا) فندخلها على اسم الله».

وهكذا توجه عبد الله بن ياسين إلى جزيرة عند مصب نهر السنغال، و بنا بهارباطا[7]و انتقل معه عدد من أتباعه المخلصين كان عددهم في البداية سبعين،8 ثم بدأ يلتحق به الأتباع، يعبدون الله واعتزلوا بدينهم، و كان عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن، وستميلهم إلى الخير، ويرغبهم في ثواب الله، و يحذرهم من ألم عقابه. حتى انتشر أمره بين الناس، واجتمع لديه

نحو ألف رجل خلال ثلاثة أشهر من الاعتكاف والعبادة، وهم من أشراف صنهاجة، سماهم المرابطين للزومهم رابطتهم.

بدأ عبد الله بن ياسين بدعوة المرابطين إلى الجهاد في سبيل الله، و كان غرضه في ذلك فتح بلاد السودان، و نشر الإسلام في ربوعه، و ثانيا نشر مذهب الإمام مالك في المغرب، بعدما كان قد استفحل أمر الشيعة مع الأدارسة والفاطميين، و من قبلهم الخوارج فقام بن ياسين بالخروج إلى الصحراء، على رأس قوة عظيمة، قاصدا سجلماسة بعد أن ذاع صيته وصيت أصحابه المرابطين، واستدعاه فقهاء سجلماسة وكتبوا إليه و إلى يحي بن عمر، وإلى أشياخ المرابطين كتابا، يرغبون إليهم الوصول إلى بلادهم ليطهروها مما هي عليه من المنكرات.

فخرج إليهم عبد الله بن ياسين عام 447هـ/1055م، و دخلها، و قتل من وجده، ففتح مغراوة وأقام بها حتى أصلح شأنها، ثم ارتحل إلى بلاد المصامدة ففتح جبل درن، ومدينة شفشاوة بالقوة عام 450هـ/1058م، ثم فتح مدينة نفيس و سائر كدميوة، وأخذت القبائل تتوافد عليه للمبايعة، ثم ارتحل إلى أغمات و فتحها.

لكن أكبر انتصار حققه المرابطون على بلاد السودان و إمبراطورية غانة خاصة، هو الاستيلاء على أودغست التي كانت خاضعة لسلطان إمبراطور غانة، رغم أن ملكها كان مسلما. و كان ذلك عام 446هـ/1054م، حيث انتزعها عبد الله بن ياسين من إمبراطورية غانة، واستباح حريمها، و جعل جميع ما أصاب فيها فيئا، حيث قتل فيها عبد الله بن ياسين رجلا من العرب المولدين من أهل القيروان، معلوما بالورع والصلاح و تلاوة القرآن و حج البيت، يسمي (زباقرة) و كان سبب نقمة المرابطين على أهل أودغست رغم كونهم مسلمين، هو طاعتهم لصاحب غانة و حكمه.

و بدخول المرابطين أودغست، وضعوا أرجلهم على أهم ممالك السودان، وعلى أهم محطة تجارية ذات حيوية اقتصادية و تجمع سكاني هام. كما أصبح المرابطون متمركزين على بعد ثلاثة أيام فقط من العاصمة الغانية كومبي.

لكن عبد الله بن ياسين قتل ببورغواطة سنة 451هـ1059م، بموضع يسمى (كريفلت)، بعدما كان قد استولى على سجلماسة و أعمالها بالسوس كله، و أغمات و نول والصحراء.

إن الفتح الإسلامي في بلاد السودان لم يتوقف بوفاة بن ياسين، بل أن هذا الأخير ترك عددا كبير من الأتباع والمخلصين لنهجه، والذين واصلوا عملية الجهاد والفتح، و منهم يحي بن عمر، الذي يعد من أشد الناس انقيادا لعبد الله بن ياسين، وامتثالا لما يأمره به، وأقرب المقربين إليه. كما يعد أيضا من أشد قادته الفاتحين، والذي خلفه بعد مقتله. و منهم كذلك أخوه أبي بكر بن عمر الذي جاء من بعده، فواصل الأخوان الفتح في بلاد السودان، حيث فتحا كومبي، عاصمة غانة عام 469هـ/1076م، وأسلم على أيديهما قسم كبير من سكانها، ودفع الوثنيون منهم الجزية، ومنذ ذلك الوقت أخذ الإسلام في الانتشار بين القبائل الإفريقية.

كما ساهمت بعد ذلك القبائل السودانية، من ماندیغ و تكرور و سراكولي، في نشر الدعوة الإسلامية بين شعوبهم، بعدما أسلموا على أيدي المرابطين والتجار المسلمين.

د- دور ملوك السودان :

إن انتشار الإسلام في المدن السودانية و المناطق الحضرية، واعتناق ملوك السودان للإسلام، جعل الإسلام يتوغل إلى المناطق التي كانت ما تزال تدين بالوثنية، أو التي بقي إسلامها سطحيا، حيث تحول هؤلاء الملوك و الأمراء السودانيون، إلى دعاة لهذا الدين بين صفوف شعوبهم، مستغلين مكانتهم الاجتماعية والسياسية، وكذا الاحترام والتبجيل الذي يكنه لهم شعوبهم.

كما أن اعتناق ملوك السودان للإسلام، أعطى لهم دورا مهما بين شعوبهم، حيث منحهم الفرصة للحصول على الشرعية الدينية التي كانوا يفتقدونها قبل ذلك، أمام تعدد المعتقدات البدائية، التي كانت تقتصر على الطقوس، و خالية من أي بعد سياسي أو حضاري.

صحيح أن أهل السودان اعتنقوا الإسلام لأنه يتلاءم مع طبيعتهم البسيطة، و روحهم المتقشفة، ذات المتطلبات المتواضعة، و تعطشهم إلى عبادة حقيقية يبتهلون فيها إلى إله واحد يعبد في كل مكان، في العراء، و في المساجد، خالية من الطقوس المعقدة، والفلسفات والرموز التي كانت تحملها الوثنية. لكن في نفس الوقت كان في اعتناق عدد من الشعوب السودانية الإسلام مصلحة سياسية، على اعتبار انه أصبح يشكل نوعا من الوطنية، وعام ع الوطنية،وعاملا موحدا للإمبراطورية السودانية و حاميا لها من الشعوب الوثنية المحيطة بها،بل اعتبر من طرف ملوك السودان نوعا من الرباط الذي يصلهم بالعالم الإسلامي.

لهذا نجد حرص ملوك السودان، على الاهتمام بأداء فريضة الحج و إحاطتها بكثير من الإشهار والفخر، كما سيأتي ذكره. كما نجدهم يبذلون جهودا لا يمكن نكرانها، في حمل راية الإسلام و نشره.فلقد لعب ملوك غانة دورا كبيرا في هذا الشأن، منذ وصول الإسلام إلى حدود مملكتهم، بل كانوا أول من أسلم من سكانها.

يشير البكري، إلى أن ملك التكرور الذي عاصره، و هو (لبي بن وارجابي)، شارك مع المرابطين في فتوحاتهم الإسلامية، حيث كان مع جيش يحي بن عمر خلال محاصرة جيوش بني جدالة له، في موقع يسمى (تبفريلي) الواقع بين تاليوين وجبل لمتونه في الصحراء، وهو الموقع الذي قتل فيه يحي بن عمر، و معه بشر كثير، و كان ذلك عام 448هـ/1056م.

لكن يبدو من خلال المصادر العربية، أن ملوك السودان اعتنقوا الإسلام قبل هذا التاريخ بكثير، بل قبل ظهور المرابطين، حيث يذكر ابن خلدون بأن أول من أسلم من الملوك الغانيين هو ملك يسمى (برمندانة)، و هو الذي نقل سنن الحج للملوك الآخرين الذين خلفوه، إذ أنه يذكر أن هناك ملوكا جاؤوا من بعده، أمثال (ساكورة) أو (سبكرة) الذي حج أيام الخليفة الفاطمي المنصور.

ومن الملوك الذين وطدوا دعائم الإسلام بن شعوبهم، نجد ملك التكرور (وارجابي) أو (واردیابي) بن رابيس، الذي يعد مؤسس إمارة التكرور، و الذي في عهده دخل الإسلام إلى هذه الإمارة، حوالي القرن 5هـ/11م، و كان أهلها قبل ذلك وثنيين ومجوسا وعبدة الدكاكير، حتى جاء وارجابي بن رابيس، فأسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام، وحملهم عليها، و حقق بصائرهم فيها، إلى غاية وفاته عام 432هـ/1040م.

و يبدو أن إسلام التكرور، كان بفعل الصلات التجارية الوثيقة، بينها و بين إباضية جبل نفوسة، حيث سمحت هذه الاتصالات بوجود جالية تجارية إباضية في بلاد التكرور، كان لها الفضل الكبير في إسلام الملك وارجابي.

وهنا يجب التأكيد على أن نمو و اتساع مراكز المسلمين، و النشاطات التجارية لهم في بلاد السودان الغربي، يرجع بشكل أساسي إلى العلاقات الطيبة التي نشأت بين التجار المسلمين والطبقة الحاكمة في السودان الغربي، الذين أدركوا الفائدة الاقتصادية القصوى التي يمكن الحصول عليها من تواجد أولئك التجار هناك.

وتوثيقا للعلاقة الودية هذه، فإن الحكام السودانيين، كملك غانة، كانوا قد عينوا بعض التجار المسلمين في بعض المناصب الإدارية العليا في بلاطهم. وكان لإسلام ملك التكرور وارجابي، دور في إسلام أهل مدينة (سلى)، إذا يقول عنها البكري: « وتسير من مدينة سلى، و هي مدينتان على شاطئ النيل أيضا، وأهلها مسلمون أسلموا على يد وارجابي رحمه الله ... و ملك سلى يحارب كفارهم، و ليس بينه و بين أولهم إلا مسيرة يوم واحد».

من خلال كلام البكري، نكتشف أن الملك التكروري وإرجابي، قد ساهم بقدر وفير في نشر الإسلام، ليس بين قومه فحسب، بل حتى بين الملوك المجاورين، الذين أصبحوا هم بدورهم يمارسون عمليات الفتح، عن طريق الجهاد ضد القبائل الوثنية. لكن رغم ذلك، فإن دور الملوك المسلمين الآخرين في إمبراطورية غانة بقي محتشما خلال هذه الفترة، نظرا لبقاء السلطة المركزية في غانة، التي يخضع لها أولئك الملوك، و التي ما يزال ملوكها وثنيين، رغم درجة التسامح الديني و حرية الاعتقاد التي كان يوفرها ملك غانة. حيث يذكر أبو عبيد الله البكري أيضا، أن مدينة غانة العاصمة، كانت خلال النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة/11م في عهد الملك (تنكامين)، تحتوي على مدينتين، مدينة للمسلمين تضم اثني عشر مسجدا، أحدها يتجمعون فيه، و لها أئمة ومؤذنون و راتبون، و فيها الفقهاء وحملة العلم، و مدينة أخري للملك تنكامين، الذي رغم أنه لم يكن مسلما، إلا أنه أقام بمدينته مسجدا يصلي فيه من يفد إليه من المسلمين، على مقربة من مجلس حكم الملك. كما اتخذ الملك مترجمين من المسلمين، و جعل منهم الوزراء و صاحب بيت ماله. و إن دل هذا على درجة التسامح الديني، الذي تميز به الملك تنكامين، و حتى أبوه من قبله، فإنه يدل كذلك على المكانة التي أصبح يحظى بها الإسلام والمسلمون عند ملوك السودان، وثقتهم فيهم، وفي حسن أخلاقهم وسيرتهم، إلى درجة أنه كان يسمح للمسلمين، بتحية الملك بالتصفيق باليدين، خلافا لغيرهم من الوثنيين، الذين كان يفرض عليهم السجود، و الجثو على ركبهم، ونثر التراب على رؤوسهم، عند تحية الملك.

وإذا كان الحال كذلك في مدينة غانة، حيث سهل ملوكها عملية انتشار الإسلام، بفضل تسامحهم وتقديرهم للمسلمين رغم وثنيتهم، فإن الأمر في بعض المدن الغانية الأخرى كان يختلف، و بقي دور الملوك ضعيفا رغم كونهم مسلمين، و ذلك بسبب حداثة انتقال الإسلام إليها، وعدم توغله بعد داخل تلك المجتمعات، إلى درجة أن ملوكهم، كانوا يخفون إسلامهم عن شعبهم، مثلما هو الحال في مدينة (الوكن) التي أسلم ملكها(فنمر بن بسي)، لكنه بقي يخفي إسلامه عن قومه، و كذلك الشأن بالنسبة لملك (سمغارة) أو (بغامة)، و هي إحدى

الممالك التابعة لغانة. فالملك (فنمر بن بسي)، كان أول من اعتنق الإسلام في عائلته الملكية، فأبوه (بسي) كان وثنيا.

إن هذا الكلام ينطبق كذلك حتى على بعض سكان غانة، حيث وجدت هناك أقوام مسلمة تخفي إسلامها، مثلما يشير إليه البكري عن قوم من سكان غانة يسمـــون بـ (الهنيهين)، الذين دخلوا غانة مع حملات الفتح الأولى التي أرسلها بنو أمية في عهد عبد الله بن الحبحاب، و التي قادها حبيب بن أبي عبيده بن عقبة بن نافع الفهري، والذي بلغ أرض السودان. والذين استقروا في مدينة غانة، و خلفوا ذرية أصبحت على دين أهل غانة من الوثنية، لكنهم لا يتزاوجون مع السود كما أشرنا.

فمن المرجح أن هؤلاء القوم، كانوا يخفون إسلامهم، و يتظاهرون بالوثنية مستعملين التقية، التي كانت شائعة في ذلك الوقت عند الشيعة، من الأدراسة والفاطميين، و حتى الموحدين. فلا يعقل أن يرتد هؤلاء، في وقت بدأ الإسلام ينتشر في هذه البلاد، وهم الذين جاؤوا إلى أرض السودان فاتحين، و حاملين راية الإسلام، متحدين قساوة الصحراء وطالبين الشهادة في سبيل نشر هذا الدين. و بالتالي فإن الأسباب التي جعلتهم يخفون إسلامهم، ربما هي نفس الأسباب التي جعلت بعض ملوك السودان الذين ذكرناهم يخفون إسلامهم.

ومهما يكن من أمر، فإن حالة التسامح الديني التي ميزت ملوك غانة رغم وثنيتهم، قد ساهمت كثيرا في نشر الإسلام بين أهل السودان، بل حتى بين ملوكهم الوثنيين، حيث سمح ذلك الوضع للعلماء والفقهاء المسلمين، بالتقرب من أولئك الملوك لدعوتهم إلى الإسلام، مثلما حدث مع ملك قبيلة (ملل)، الذي يعرف بـ (المسلماني)، الذي أجدبت بلاده عاما، و رغم تقديمه للقرابين من البقر طلبا للغيث، إلا أن أرضهم ازدادت قحطا، وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن، و يعلم السنة، فشكا إليه الملك مصابهم، فاقترح عليه العالم الإيمان بالله، و إقرار وحدانيته و بمحمد عليه الصلاة والسلام، ورسالته، و الاعتقاد بشرائع الإسلام، مقابل أن يدعو له الله لفك كربته. و بقي يحثه على ذلك، إلى أن أسلم هذا الملك، وأخلص نيته، و أقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه، و علمه الفرائض والسنن، وأمره بالتطهر، و صليا ليلة الجمعة، و دعوا لله. ولم يحل الصباح حتى أنعم الله عليهم بالغيث، فأمر الملك بكسر الدكاكير، و إخراج السحرة من بلاده، و صح إسلامه، وأسلم عقبه، و خاصته، و أهل مملكته المشركون، فسموا ملوكهم منذ ذلك الوقت بالمسلماني.

و مهما تكن المبالغة التي تحملها هذه الرواية، فإننا نستخلص منها، أن ملوك غانة، قد اعتنقوا الإسلام نتيجة العلاقات التي كانت تربطهم بالتجار، والفقهاء المغاربة المسلمين. وحملوا بدورهم راية نشر الإسلام بين قومهم، بينما بقي ملوك العاصمة الغانية رافضين دخول الإسلام، رغم تسامحهم مع المسلمين، و تقديرهم لهم و لعلمائهم، والذي كان عاملا أساسيا في انتشار الإسلام. وفي الحقيقة هناك من يشير إلى أن سبب رفض ملوك غانة دخول الإسلام هو خوفهم على نفوذهم في المنطقة ، والتصدي لنفوذ التجار البربر المسلمين الذي أصبح دورهم يتنامى.

لكننا نرى بأن الجزم بهذا السبب الاقتصادي يعد أمرا مبالغا فيه، وذلك لعدة اعتبارات، أولها أن التجار المسلمين كانوا يتمتعون بنفوذ تجاري منذ مدة طويلة، و لم يهدد نفوذ الملوك

الغانيين، كما أننا نرى على العكس من ذلك، بأن التجار المسلمين هم الذين ساهموا في نمو ثروات ملوك غانة، و أعطوا للذهب الغاني تلك القيمة المادية التي صنعت منهم أثرياء. بالإضافة إلى هذا، فإننا نجد في هذا الكلام تناقضا كبيرا، وهو كيف لملوك يخافون من التجار المسلمين، يعاملونهم بذلك الاحترام والتقدير، ويقربونهم إليهم، بل ويأتمنونهم على خزائنهم وأموالهم.

كما ساهم ملوك مالي، بدور لا يستهان به في نشر الإسلام بين شعوب السودان، و كان ذلك حتى قبل وصول الملك سونديانا إلى الحكم. و كانت قرية (منفارة)، هي أول قرية للماندينغ تعتنق الإسلام، في وقت لم تكن أية قرية ماندية غيرها قد أسلمت بعد. وقد تأثر سكان هذه القرية بقبائل (المالينك) السودانية، الذين اعتنقوا الإسلام قبلهم، فأعجب بهم وهم يصلون و يصومون. كما تأثروا ببعض أفراد (السوننكي) الذين يعيشــون بينهم.

وإذا كان أول مسجد بني عند الماندينغ كان في قرية منفارة، فإن أول من دخل الإسلام من ملوكهم كان أيضا قبل عهد سونديانا، حيث يـذكـر بأنه وجـد ملك واحد كان قد أسلم وهو (نياني مانسا ماموروNiani Mansa Mamourou) ، لكنه كان يخفي إسلامه، و كان يؤدي صلاته داخل بيوته المغلقة، و يدعي أمام قومه بأنه كان يأخذ حمامه داخل أوعية مقدسة داخل تلك البيوت.[3]و عموما فإن انتشار الإسلام في بلاد السودان الغربي، كان في أغلبه سلميا، كما أن التأثير الإسلامي في المنطقة كان بطيئا وتدريجيا، إلى غاية القرن الثامن للهجرة / 14م، و في فترة حكم(منسـا موسـى) أو (موسـى كاكـان)، إمبراطور مالي، حيث يشير العمري، إلى أن أكبر فترة لانتشار الإسلام في غرب إفريقيا، تعود إلى عهد منسا موسى[4] فقد بلغ انتشار الإسلام في عصره، امتدادا كبيرا في المنطقة، إلى درجة أن ابن سعيد المغربي الذي عاصره يقول: «و أما في عصرنا فما على شاطئ النيل في بلاد التكرور مدينة، إلا و قد دخلها الإسلام، و جميعها لسلطان التكرور».

إن وصول منسا موسى إلى الحكم، أعطى للإسلام دفعا قويا للتوغل داخل السودان إذا تحولت إمبراطورية مالي في عهده إلى إمبراطورية إسلامية بأسلمته للسلطة المركزية، وارتبطت في عهده بلاد السودان الغربي بالعالم الإسلامي. كما قام بعدة أعمال بغرض توطيد دعائم الإسلام في كامل الإمبراطورية. فالمصادر العربية تتحدث كثيرا عن منسا موسى، و تقواه، وعبادته، و خاصة عن قصة خروجه إلى الحج المشهورة، و بنائه للمساجد، و إنفاقه العظيم في سبيل ذلك ،حيث يذكر عبد الرحمان السعدي في هذا الشأن : « هو صالح عادل، لم يكن فيهم مثله في الصلاح والعدل، قد حج بيت الله الحرام ... و دخل أهل سغي في طاعته بعد جوازه إلى الحج، و بطريقه رجع فابتنى مسجدا، و محرابا خارج مدينة كاغ، صلى فيها الجمعة ... و قيل أن السلطان كنكن موسى هو الذي بنا صومعة الجامع الكبير».

و يقول عنه محمود كعت:« كان الملك موسى كاكان، سلطانا صالحا تقيا عابدا... كان يعتق كل يوم نفسا، وحج إلى بيت الله الحرام وبنا بحجه مساجد كل من تنبكتو، ودوكر، وخندم، و ديري».

إن هذه الصفات التي نقلتها لنا المصادر العربية، تبين درجة توغل الإسلام عند ملوك مالي عموما، وعند موسى كاكان بالذات، الذي كثيرا ما يذكره المؤرخون بلقب الحاج، نظرا

للأهمية التي كان يوليها لفريضة الحج، حيث كان يحمل معه كمية هائلة من الذهب إلى الحج للتصدق بها في طريقه، إلى درجة أن الذهب فقد قيمته لعدة سنوات بالقاهرة، بعد مرور منسا موسى بها في طريقه إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج. كما حمل معه لدى خروجه إلى الحج بالإضافة إلى الأموال الجسيمة، قوة عظيمة من جيش عرمرم، مكون من ثمانية آلاف جندي، و خمسمائة من النساء، و ثمانية آلاف و سبعمائة من العبيد.
ولقد ذكر صاحب تاريخ الفتاش، أن سبب اهتمامه بالحج و إنفاقه الشديد عليه، إنما هو تكفير لذنب كان قد اقترفه، بعدما قتل أمه بطريق الخطأ، و لما آسف و ندم لذلك، وخاف عقوبة ذلك، و تصدق بمال جسيم، وعزم على صوم الدهر، فنصحه الفقهاء والعلماء بأن يزور قبر الرسول صلى الله عليه و سلم، و يتوب عنده.

ان هذا الكلام عن حرص موسى كاكان على تكفير ذنبه، والندم الذي أصابه، والأموال التي صرفها والمشاق التي تكبدها، إنما تدل على درجة الإيمان الذي كان يتمتع به هذا الملك، فإسلامه لم يكن سطحيا، كما كان لدى سابقيه من أهل السودان وملوكهم.

إن درجة إجلال موسى كاكان للإسلام، جعلته يتحول إلى داعية لهذا الدين وتشره في بلاد السودان، ليكمل ما بدأه السابقون. حيث أنه حرص على اصطحاب معه من الحج، اثنين أو ثلاثة من شرفاء مكة، و عند عودته ذهب بهم إلى قومه ليتبركوا برؤيتهم، و تنال أرضه بركة أقدامهم. و دفع لأجل ذلك ألف مثقال من الذهب لكل واحد منهم، فتبعوه بأهاليهم راحلين إلى بلده.

و لم يكتف بذلك، بل أنه أرسل بعثات طلابية من مالي إلى مدينة فاس لتلقي العلوم الإسلامية، و نشرها في بلده، حيث تخرج من مدارس فاس علماء، و فقهاء وأئمة سودانيون، والذين تولوا إمامه (مسجد سنكري) بتمبكتو بعد ذلك، آخرهم كان الشيخ كاتب موسى، وهو قاض و فقيه، مكث في إمامة المسجد المذكور أربعين سنة.

كما اهتم بنشر تعاليم الإسلام في مملكته، من خلال تأسيسه لمدرسة قرآنية إجبارية لفائدة الأطفال بالعاصمة المالية. ذلك أن ابن بطوطة خلال زيارته لمالي عام 735هـ /1325م، لاحظ يوم العيد، أولاد القاضي مقيدين بالحديد، لأنهم لم يحفظوا آية قرآنية. كما رأى شابا آخر، حسن الصورة، عليه ثياب فاخرة و في رجليه قيد ثقيل، بسبب عدم حفظه للقرآن كذلك. لكن لا بد أن نشير إلى أن هذا الملك، رغم حرصه على نشر تعاليم الإسلام وصرامته في تعليم القرآن، إلا أنه كان متسامحا وحذرا في تعامله مع الوثنيين والكفار، فحافظ على احترام معتقدات شعبه من غير المسلمين، ولم يدخل معهم في صراعات دينية.

لقد ساهم موسى كاكان بقسط عظيم في توطيد دعائم الإسلام داخل المجتمع السوداني، إلى درجة أن كثيرا من مظاهر التدين أصبحت بارزة داخل هذا المجتمع، لم تكن موجودة حتى في بعض الدول الإسلامية التي سبقتها بعدة قرون في اعتناق الإسلام. حيث لم يعد أحد من السودان يتعرض لأموال البيضان عندما يموت أحدهم ببلادهم، حتى يأخذه مستحقوه، كما أصبح الناس يواظبون على الصلوات، و يلتزمونها في الجماعات، بل أصبحوا يضربون أولادهم عليها. و إذا كان يوم الجمعة و لم يبكر الإنسان إلى المسجد، لم يجد أين يصلي لكثرة

الزحام. إلى درجة أن سكان مالي، كانوا يبعثون غلمانهم بسجاد اتهم، ليبسطوها لهم بموضع في المسجد، حتى يضمنوا أماكن لهم.

ومن الملوك السودانيين الذين ساهموا في نشر الإسلام أيضا، نجد ملك مدينة جني الذي دخل الإسلام في نهاية القرن السادس للهجرة/ بداية ق 13م، وإسمه (كنبر) الذي دخل الإسلام بعدما حشر جميع علماء أرض مدينته (حسب تعبير السعدي)، فتجمع عنده أربعة آلاف ومائتا عالم ، فأسلم على أيديهم، وأسلم باقي أهل المدينة بإسلامه. وأول ما قام به بعد إسلامه، هو تخريب دار السلطنة وحولها إلى مسجد الله تعالي.

كما ساهم ملوك مملكة سنغاي في نشر الإسلام نحو الشرق باتجاه نهر النيجر، حيث دخل ملوكهم الإسلام، قبل تعرضهم للغزو من طرف إمبراطورية مالي خلال القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، إذا اعتنقوا الإسلام منذ أن استقروا في منطقة كوكيا.

لكن أغلبية شعبهم بقي وثنيا إلى غاية القرن لتاسع للهجرة/15م حيث انتشر الإسلام في كامل ربوع المملكة.

وكان أول ملك من السنغاي يعتنق الإسلام هو (ديازا كوسي)، الذي أبقى مدينة كوكيا عاصمة تقليدية له، وكان يستقبل فيها سرا وبصفة خاصة واستثنائية، أشخاصا مؤمنين من مدينة جاو، بينما بقيت التقاليد الوثنية حاضرة في عهده.

إن شهادة البكري، تؤكد انتشار بعض العادات الوثنية خلال الفترة التي كتب فيها عن سنغاي ،وذلك عام 460هـ/1067م،أين كان يحكمها ملك مسلم يدعي (فندا)، وكانت المدينة مقسمة إلى مدينتين على طريقة مدينة غانة،و هي مدينة للمسلمين وأخرى للكفار،أين كانت تنتشر عبادة الدكاكير، وضرب الطبول على جلوس ملكهم، ورقص نسائهم بالشعور المسترسلة.

لكن ما إن حل القرن التاسع للهجرة، حتى كانت الدعوة التي قام بها ملوكهم قد أعطت ثمارها، وعم الإسلام في جميع ربوع المملكة.

أما ملوك الكانم بورنو، فقد كان دورهم جد مؤثر في نشر الإسلام في السودان الأوسط. إذ لم يكتفوا بالدعوة للإسلام ونشره بين شعوبهم، الذين كانت تغلب عليهم المسيحية، والبعض الآخر المجوسية و الوثنية، بل حرصوا على التطبيق الصارم لتعاليم الإسلام داخل مملكتهم.

لقد كانت مملكة الكانم خلال العصور الوسطى، تمثل بحق المملكة المطورة لبلاد السودان الأوسط، مثلما كان الحال بالنسبة لمالي في السودان الغربي. إذ شكلت مركزا لحضارة سودانية، تحمل الكثير من معالم الحضارة الإسلامية، لكن ذات خصوصيات سودانية.

فخلال القرن الخامس للهجرة/11م، الذي يعد القرن الذي بدأ فيه الإسلام ينتشر في كثير من الشعوب الإفريقية، مع حركة المرابطين في السودان الغربي، كان الملك الكانمي (هوماي) قد اعتنق الإسلام، وهو الحدث الذي كان له أكبر أهمية بالنسبة لهذه للمملكة وتاريخها. حيث قام هذا الملك بجلب عدة علماء مسلمين، كانوا يترجمون القرآن، و يعلمون الفقه و ينشرون الأفكار السياسية التي كانت موجودة في دول المغرب الإسلامي.

ومن خلال ابن سعيد المغربي، فقد «وجد في عاصمة الكانم نجيمي خلال القرن السابع للهجرة/13، سلطانا مشهورا بالجهاد وأفعال الخير، وأنه ينتسب إلى ذرية سيف بن ذي يزن اليمني، وأن جده الرابع، هو أول من دخل الإسلام من هذه العائلة المالكة على يد فقهاء الإسلام، وقد أيده الله وكثر نسله وعساكره»، ويضيف أيضا :« وكان يستقبل الفقهاء ويبجلهم، كما أسلم على يده الكثير من البرابرة شرقي جبل "مقورس، الموجود في حدود الفاصلة بين مملكة ومملكة كوكو، وكان يتخذ منهم العبيد والمجاهدين». فمن المرجح أن يكون هذا الملك، هو(عبد الجليل سليما) الذي ذكرناه في الفصل الأول من هذا البحث، والذي يكون قد تزامن مع عصر ابن سعيد المغربي بين(655-617هـ) /(1258-1221م). وبهذا يكون الإسلام الذي انتشر في السودان الغربي والأوسط، قد أدخل المنطقة إلى نطاق حضاري إسلامي، و قرب أكثر منطقة السودان إلى بلاد المغرب، و ساهم في بناء علاقات حضارية أكثر انتعاشا، و أكثر تأثيرا.